إدْغار مُورَان

تربية المستقبل

المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل

ترجمة : عزيز لزرق ومنير الحجوجي



دار توبقال للنشر

عمارة معهد التسيير التطبيقي، ساحة محطة القطار - الدار البيضاء

بلفدير، الدار البيضاء 05 - المغرب

الهاتف / الفاكس : 36 27 67 (022)



منشورات اليونسكو

7, place de Fontenoy, 75352 Paris 07-SP 1, rue

Miollis, 75732 Paris Cedex 15, France

تم نشر هذا الكتاب ضمن سلسلة
معالم

الطبعة الأولى 2002

تمت هذه الترجمة تحت إشراف دار توبقال للنشر.

ISBN UNESCO : 92-3-603778-X

تربية المستقبل

العنوان الأصلي للكتاب

Edgar Morin

Les sept savoirs nécessaires
a` l'éducation du futur

الإيداع القانوني رقم : 2002/2039
ردمك 9 - 31 - 409 - 9954

الفهرست

تشكرات

إني سعيد جدا بتفهم ودعم اليونسكو لي وخاصة الدعم الذي قدمه كوسطافو لوبيز أوسبينا، مدير المشروع العابر للمعارف : « التربية في خدمة مستقبل قابل للعيش ». لقد كان كوسطافو لوبيز أوسبينا يشجعني على الدوام على التعبير عن أفكاري بالشكل الذي أرى أنه الأكثر كمالا.

يجب أن أشير أيضا إلى أنه تم إخضاع هذا النص لمناقشة شخصيات جامعية وموظفين دوليين من الشرق والغرب والشمال والجنوب، أذكر منهم أندراس بيرو (هنغاريا - خبير في التنمية لدى منظمة الأمم المتحدة). مورو سيروتي (إيطاليا - جامعة ميلانو)، إيمليوروجي سيورانا (إسبانيا - جامعة ڤلادوليد)، إدواردو منكيز (كولومبيا - بونتيفيسيا بوليفاريانا)، ماريا دو ألميدا (البرازيل - الجامعة الفدرالية لريو كراندي للشمال)، نذير عزيزة (المغرب - كرسي الدراسات الأرومتوسطية)، إدكار دو أسيس كارفالو (البرازيل - الجامعة الكاثوليكية لساوباولو)، كارلوس كارزا فالا (المكسيك - أونام)، ريكوبرطو لانز (فنزويلا - الجامعة المركزية)، كارلوس ماطو فرنانديز (الأوروكواي - جامعة الجمهورية)، راوول موطا (الأرجنتين - المعهد الدولي للفكر المركب، جامعة السالفادور)، داريو مونيرا فيليز (كولومبيا)، ألفونسو مونتيوري (الولايات المتحدة الأمريكية - المعهد الكاليفورني للدراسات الشاملة)، شين ماك كيلي (كندا - جامعة أوطاوا)، إيلينا كنيازيفا (روسيا - معهد الفلسفة، أكاديمية العلوم)، شوبايي نيموطو (اليابان - مؤسسة دعم الفنون)، يونا كورسورادي (تركيا - جامعة بيطب، أنقرا)، شنكلي ما (الصين - معهد دراسات أوربا الغربية، الأكاديمية الصينية

للعلوم الاجتماعية)، ماريوس موكونو كاكانكو (الزايير ـ جامعة كينشاسا)، بيطر وسطبروك (هولندا ـ جامعة ليدن).

ولقد كلفت اليونسكو نلسون فاليخو كوميز بتلقي الردود والمقترحات ودمجها داخل العمل. كما قدم هو أيضا مقترحاته الخاصة. وبعد مختلف التعديلات التي اقترحت وأدخلت على النص وضعت موافقتي النهائية عليه.

لكل هؤلاء أوجه تشكراتي الخالصة والحارة.

تقـديـم

عندما ننظر للمستقبل فإننا نجد عدداً من اللايقينيات فيما سيكون عليه عالم أطفالنا وأحفادنا. لكن يمكننا أن نتيقن على الأقل من شيء واحد: إذا أردنا أن تُؤَمِّنَ الكرةُ الأرضية حاجات الجنس البشري الذي يعمرها، فعلى المجتمع الإنساني أن يتغير. هكذا، فعالم الغد يجب أن يكون مختلفاً بعمق عن العالم الذي نعرفه اليوم عند مغيب القرن العشرين. علينا إذن أن نعمل على بناء «مستقبل قابل للعيش». الكلمات الأساسية: الديمقراطية والانصاف والعدالة الاجتماعية والسلام، بالإضافة إلى التناغم مع البيئة الطبيعية، كلمات يجب أن تكون محاور لعالم المستقبل. لنكن على يقين بأن مفهوم «البقاء» يكمن في طريقة معيشنا وفي كيفية توجيه أوطاننا ومجتمعاتنا على المستوى الوطني والكوني.

تحتل التربية - في معناها الشاسع - وفي تطورها نحو تحولات عميقة في أنماط حياتنا ومسلكنا دوراً مهيمناً عليها أن تلعبه. التربية هي «قوة المستقبل» لأنها واحدة من الأدوات الأكثر قوة لتحقيق التغيير. إحدى التحديات الأكثر صعوبة هي تغيير طرق تفكيرنا لمواجهة التعقيد المتصاعد والتحولات المتسارعة واللامتوقعة التي تطبع عالمنا. علينا أن نعيد التفكير في طريقة تنظيم المعرفة. من أجل هذا وجب علينا إزاحة الحواجز التقليدية من المعارف وتصور كيفية ترابط ما كان منها إلى حد الآن مفرّقاً. علينا إعادة تشكيل سياستنا وبرامجنا التربوية، علينا أن نصون هذا التوجه إلى أبعد مداه من أجل أجيال المستقبل التي نتحمل أمامها مسئولية كبرى.

عملت اليونسكو على التفكير في التربية بمعناها المستديم، وعلى الأخص في وظيفتها الأساسية لوضع «برنامج دولي حول التربية، وحول تحسيس الجمهور، وحول التكوين المتعلق بالحياة». لقد انطلق هذا البرنامج سنة 1996 من طرف لجنة التنمية المستديمة للأمم المتحدة، وسيؤكد برنامج العمل هذا على الأسبقيات المجمع عليها من طرف جميع الدول ويدعوها هي نفسها، وكذا المنظمات غير الحكومية وعالم رجال الأعمال والصناعة، والمجتمع الأكاديمي ونظام الأمم المتحدة، ومؤسسات المال العالمية لتتخذ، بسرعة، الاجراءات حتى تضع موضع التنفيذ المفهوم الجديد للتربية من أجل مستقبل قابل للعيش، وبالتالي إصلاح السياسات والبرامج التربوية الوطنية. وقد كانت منظمة اليونسكو مدعوة لتمارس دور المحرك لتعبئة الحركة الدولية في هذا الإطار.

هكذا طلبت اليونسكو من ادغار موران التعبير عن آرائه حول جوهر التربية المستقبلية في سياق رؤيته لـ«وحدة المعرفة». نشرت هذه الوثيقة إذن من طرف اليونسكو كإسهام في الحوار العالمي حول طريقة إعادة توجيه التربية نحو تنمية مستديمة. لقد قدم ادغار موران سبعة مبادئ كمفاتيح التي يعتبرها ضرورية للتربية المستقبلية. وأملي الكبير أن تثير هذه الأفكار نقاشاً يساعد رجال التربية ورجال القرار لتوضيح أفكارهم حول هذه القضية الحيوية.

أوجه شكري لادغار موران لقبوله الإسهام مع اليونسكو في تأمل يفسح المجال لحوار كهذا وفي إطار المشروع المتعدد الاختصاص «التربية من أجل مستقبل قابل للحياة»، أوجه شكري أيضا للخبراء الدوليين الذين أغنوا هذا الكتاب باقتراحاتهم وخاصة للسيد نلسون فالگو كوميز.

إن حكمة والتزام المفكرين مثل ادغار موران لا تقدر بثمن، إنهم يساعدون اليونسكو في التغيرات الفكرية العميقة الضرورية للمستقبل.

المدير العام لليونسكو
فيديركو مايور

تمهيد

لا يتناول هذا الكتاب كل المواد المدرسية أو التي ينبغي تدريسها. إن هدفه بالأحرى هو عرض سبعة قضايا جوهرية يعتبر تدريسها ضروريا وملحا، وهي قضايا تظل غائبة أو منسية تماما.

هناك معارف سبعة أساسية يتوجب على تربية المستقبل الأخذ بها في كل مجتمع وفي كل ثقافة، بدون استثناء، ولا إقصاء، وذلك بحسب القواعد والطرق الخاصة بكل مجتمع وبكل ثقافة.

النصف بأن المكتسبات العلمية التي يوظفها هذا الكتاب بهدف تحديد الشرط الإنساني ليست فقط معطيات مؤقتة ولكنها تفتح على ألغاز عميقة تخص الكون والحياة وظهور الكائن البشري.

إننا هنا بصدد قضايا يصعب الحسم فيها بشكل قطعي، الشيء الذي يفسح المجال أمام المقاربات الفلسفية والمعتقدات الدينية، من خلال ثقافات وحضارات.

المَعَارِفُ السَّبْعَةُ الضَّرُورِيَّةُ

الفصل الأول: أنْوَاعُ العَمَى المَعْرِفِي: الخَطَأُ والوَهْمُ

- من الملفت للنظر أن نلاحظ أن التربية التي تهدف إلى توصيل المعرفة تظل جاهلة بماهية المعرفة الإنسانية وبآلياتها وحدودها وصعوباتها ونزوعها الطبيعي إلى الخطأ والوهم. كما أنها لا تبذل أي مجهود لتعرف بماهية المعرفة.

- وبالفعل، لا يمكن بتاتا اعتبار المعرفة أداة جاهزة بالإمكان استعمالها دون فحص طبيعتها. من هنا الضرورة الملحة لمعرفة المعرفة كسلاح في مواجهة الأخطار الدائمة للوقوع في الخطأ والوهم اللذين لا يتوقفان عن التشويش على العقل الإنساني. يتعلق الأمر بأن نمنح للعقل السلاح الضروري في الصراع الحيوي من أجل الوضوح.
- من الضروري أن نقوم، في قلب التعليم، بإدماج وتطوير دراسة الخصائص الدماغية والذهنية والثقافية للمعارف الإنسانية، إضافة لمساراتها وأنماطها وتدابيرها النفسية والثقافية المسؤولة، في أحد وجوهها، عن نزوعها إلى الخطأ والوهم.

الفصل الثاني: مَبادئُ المَعْرِفَةِ المُلائمَة

- هناك قضية حاسمة يتم تجاهلها على الدوام وتتعلق بضرورة بناء معرفة قادرة على تمثل المشاكل الشمولية والجوهرية في أفق دمج المعارف الجزئية والمحلية داخلها.
- غالبا ما تؤدي هيمنة المعرفة المجزأة تبعا لاختلاف المعارف إلى العجز عن الربط بين الأجزاء والكليات. على مثل هذه المعرفة أن تترك المكان لمعرفة قادرة على تمثل مواضيعها داخل سِيَاقاتِهَا ومُرَكَّبَاتِهَا وإطَارَاتِهَا.
- من الضروري تطوير القدرة الطبيعية للفكر البشري على موضعة معارفه داخل سياق وإطار محددين. من الضروري تدريس المناهج التي تسمح بتمثل العلاقات والتفاعلات بين الأجزاء والكل داخل عالم مركب.

الفصل الثالث: تَعْلِيمُ الشَّرْطُ الإنْسَانِي

- الإنسان هو، في الوقت ذاته، كائن فزيائي وبيولوجي ونفسي وثقافي واجتماعي وتاريخي. وهذه الوحدة المركبة للطبيعة الإنسانية هي ما يعبث بها التعليم في مختلف المواد المدرسية. وبفعل هذا التشتت، أصبح من المستحيل اليوم تعلم ما يعنيه الكائن الإنساني، هذا في الوقت الذي صار

فيه من الملح جدا، بالنسبة لكل فرد، أينما كان، أن يعي الطابع المركب لهويته ولهويته المشتركة مع الآخرين.

- لذلك على التعليم أن يجعل من الشرط الإنساني موضوعه الجوهري.
- يبين هذا الفصل كيف يمكن، انطلاقا مما توفره المعارف الحالية، الاعتراف بوحدة الإنسان وبطابعه المركب من خلال لم وتنظيم المعارف المشتتة بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والأدب والفلسفة. يوضح هذا الفصل كذلك التعالق القوي بين وحدة وتنوع كل ما هو إنساني.

الفصل الرابع: تَعْلِيمُ الهُويّة الأرْضِيَّة

- يعتبر المصير الكوكبي البشري - وهو المصير الذي لم يكن أبدا كوكبيا مثلما هو عليه الآن - الغائب الأكبر عن التعليم. يجب أن تصبح المعرفة بمستجدات العصر الكوكبي والاعتراف بالهوية الأرضية إحدى المواضيع الجوهرية للتعليم.
- يجب تعليم تاريخ العصر الكوكبي الذي بدأ مع تواصل القارات فيما بينها إبان القرن السادس عشر. ينبغي أن نبين كيف أصبحت جميع مناطق المعمور متداخلة ومتضامنة فيما بينها دون أن نغفل أنواع الاضطهاد والهيمنة التي دمرت ولازالت تدمر حتى الآن البشرية جمعاء.
- يجب الإلحاح على الطابع المركب للأزمة الكوكبية التي ميزت القرن العشرين لكي نبين كيف أن البشر يشتركون منذ الآن في نفس مشاكل الحياة والموت ويعيشون مصيرا مشتركا واحدا.

الفصل الخامس: مُواجَهَةُ اللاَّيَقينيَّات

- قدمت لنا العلوم مجموعة من الحقائق اليقينية بقدر ما كشفت لنا، خلال القرن العشرين، عن عدد لا يحصى من اللايقينيات التي ظهرت في قلب العلوم الفيزيائية (الميكرو فزياء، الدينامية الحرارية، الكوسمولوجيا) وعلوم التطور البيولوجي والعلوم التاريخية.

- يجب تعليم مبادئ الاستراتيجية التي تمكن من مواجهة المحتمل واللامتوقع واللايقيني، حسب المعلومات المحصل عليها أثناء القيام بفعل ما والعمل على تغيير مسار تطورها. يجب تعلم الإبحار في محيط اللايقينيات عبر أرخبيلات من اليقين.
- هنا تكمن راهنية عبارة الشاعر اليوناني أوريبيد التي قالها أكثر من خمسة وعشرين قرنا: «إن المتوقع لا يقع أبدا والإله لا يبارك حدوث إلا ما لم يكن متوقعا». يجب أن يشكل التخلي عن التصورات الحتمية للتاريخ الإنساني (وهي التصورات التي تقول بإمكانية التنبؤ بالمستقبل) وفحص الأحداث والطوارئ الكبرى لقرننا التي كانت كلها غير متوقعة والطابع المجهول من الآن للمغامرة البشرية مدخلنا الأساس إلى ممارسة فضيلة توقع اللامتوقع لمواجهته بشكل أفضل. وعلى أولئك الذين جعلوا من التعليم مهمتهم في الحياة أن يكونوا في الخطوط الأمامية لمواجهة لايقين عصرنا.

الفصل السادس: تَعْلِيمُ الفَهْمِ

- يشكل الفهم في الوقت ذاته وسيلة التواصل الإنساني وغايته. والحال أن التربية على الفهم غائبة كليا عن مختلف أنواع تعليمنا. إن كوكبنا يتطلب أنواعا من الفهم المتبادل في جميع المستويات وعلى جميع الأصعدة. وبالنظر إلى أهمية التربية على الفهم على جميع المستويات التربوية وكل المراحل العمرية، يقتضي تطور الفهم إصلاحا للعقليات.

  وهذا أحد الرهانات الكبرى للتربية في المستقبل.
- لقد أصبح التفاهم بين البشر، بغض النظر عن كونهم أقرباء أو غرباء عن بعضهم البعض، أمرا حيويا لكي تتحرر العلاقات الإنسانية من الوضعية الوحشية التي يسبب فيها اللاتفاهم.
- من هنا ضرورة دراسة جذور وأنماط ونتائج اللاتفاهم (وليس فقط أعراضه). يجب، بالفعل، التوجه إلى جذور العنصريات وكره الأجانب والاحتقار. وبإمكان مثل هذه الدراسة أن تشكل في نفس الوقت الأسس الأكثر ضمانة للتربية على السلام.

الفصل السابع: أخْلاقُ الجِنْسِ البَشَريّ

- يجب أن يفضي التعليم إلى «انتروبو - أخلاقية» من خلال الأخذ بعين الاعتبار الطابع الثلاثي الأبعاد للشرط الإنساني، أي كونه، في الوقت ذاته، الفرد ⟵⟶ المجتمع ⟵⟶ النوع. بهذا المعنى، تفترض أخلاق الفرد المجتمع مراقبة متبادلة للمجتمع من قبل الفرد وللفرد من قبل المجتمع، أي تفترض الديموقراطية. وتتطلب الأخلاق الفرد ⟵⟶ النوع، في القرن الواحد والعشرين، التضامن الكوكبي.
- يجب ترسيخ الأخلاق في العقول عبر تعليم الوعي بكون الإنسان هو في الوقت ذاته فرد وجزء من مجتمع وجزء من نوع. إن كل واحد منا يحمل داخله هذا الواقع الثلاثي الأبعاد.

لذلك فأفضل تقدم يمكن أن يحققه البشر هو تطوير أنواع استقلالية الفرد والمساهمات الجماعية والوعي بالانتماء وللنوع البشري.

- من هنا تتضح الغايتان الأخلاقيتان السياسيتان الكبيرتان للألفية الجديدة: ألا وهما بناء علاقة المراقبة المتبادلة بين المجتمع والأفراد عن طريق الديموقراطية وتحقيق البشرية كجماعة كوكبية. يجب على التعليم أن يساهم ليس فقط في بناء الوعي بالأرض - الوطن ولكن أن يسمح أيضا بترجمة هذا الوعي في إرادة تضع هدفا لها تحقيق المواطنة الأرضية.

الفصل الأول

أنْوَاعُ العَمَى المَعْرِفِي: الخَطَأُ والوَهْمُ

إن كل معرفة معرضة للوقوع في الخطأ والوهم. ومن واجب التربية مواجهة هذا المشكل المعرفي المزدوج. إن أكبر خطأ قد نرتكبه هو التقليل من مشكل الخطأ وأكبر وهم قد نسقط فيه هو التقليل من مشكل الوهم، خصوصا وأنه من الصعب بمكان الكشف عن الخطأ والوهم بسبب كونهما لا يتقدمان أبدا إلى المعرفة بوصفهما كذلك.

منذ ظهور الإنسان العاقل والخطأ والوهم لا يتوقفان عن التشويش على الفكر البشري. وعندما ننظر إلى الماضي بما في ذلك الماضي القريب، ينتابنا شعور بأن الفكر البشري كان على الدوام تحت قبضة أخطاء وأوهام عديدة. ولقد سبق لماركس وانجلز أن وضحا، في **الايديولوجية الألمانية**، كيف أن البشر شيدوا على الدوام تصورات خاطئة وحول أنفسهم وحول ما يفعلونه وما يعتقدون أنه من واجبهم فعله إزاء عالمهم. ولكن لا ماركس ولا انجلز استطاعا الانفلات من قبضة هذه الأخطاء.

1 . نُقْطَةُ ضُعْفِ المَعْرِفَة

على التربية أن تبين كيف انه لا وجود لمعرفة، مهما كان مستواها، في منأى عن الخطأ والوهم. في هذا الصدد توضح نظرية الإعلام كيف أننا نوجد على الدوام تحت رحمة الخطأ نتيجة ما يحصل من تقلبات اعتباطية وتشويش دائم يصاحبان كل عملية إخبار أو تبليغ لرسالة ما.

إن المعرفة ليست مرآة للأشياء وللعالم الخارجي. فكل الإدراكات هي، في الوقت ذاته، ترجمات وإعادات بناء يقوم بها الدماغ انطلاقا من مثيرات أو إشارات

تلتقطها الحواس وتقوم بتَشْفِيرِهَا. وهذا ما يفسر الأخطاء العديدة في الإدراك الناتجة عن الرؤية التي هي مع ذلك حاستنا الأكثر مصداقية. وإلى جانب الخطأ الإدراكي، هناك الخطأ العقلي. فكون المعرفة - في شكل كلمات وأفكار ونظريات - هي ثمرة عملية ترجمة/إعادة بناء عبر وسائل اللغة والفكر يقوي لا محالة من فرص الوقوع في الخطأ. يضاف إلى ذلك أن المعرفة سواء على مستوى الترجمة أو على مستوى إعادة البناء تشتمل على التأويل، مما يسرب إمكانية الوقوع في الخطأ داخل ذاتية الذات العارفة، وداخل رؤيتها للعالم، وداخل مبادئها المعرفية، ويفسر الأخطاء العديدة في قلب ما يتم بناؤه من تصورات وأفكار على الرغم مما قد نمارسه من مراقبة عقلانية على عملية ومسار إنتاج المعرفة. وأخيرا هناك مشكل إسقاط رغباتنا ومخاوفنا والاختلالات العقلية التي تحبل بها انفعالاتنا وتضاعف من احتمالات الوقوع في الخطأ.

قد يعتقد البعض أنه بإمكاننا إبعاد الخطأ عبر كَبْتِ كل وجدان. وبالفعل، بإمكان الإحساس والكراهية والحب والصداقة أن تعمي بصيرتنا. لكن تبين أن تطور الذكاء، داخل عالم الثدييات، وخاصة داخل العالم الإنساني، هو غير منفصل عن تطور الوجدان، أي عن تطور الفضول والشغف اللذين يدخلان في زمرة البحث الفلسفي أو العلمي. وإذا كان الوجدان يخنق المعرفة فهو قادر، من جهة أخرى، على منحها كل الحياة الضرورية. هناك على الدوام، تَوَاشُجٌ قوي بين العقل والوجدان. فقد يؤثر ضعف في الوجدان بشكل سلبي على ملكة العقل وقد يشلها تماما، وقد يؤدي إضعاف القدرة العاطفية إلى سلوكيات لا عقلانية. ومن أوجه أخرى بإمكان القدرة على الانفعال أن تشكل حافزا ضروريا على القيام بسلوكات عقلانية.

في العلاقة عقل/وجدان لا يهيمن العقل على العاطفة. إن العلاقة بينهما تتخذ بالأحرى شكل حلقة تجمع بين: العقل ⟵⟶ العاطفة.

يشكل تطور المعرفة العلمية أداة فعالة جدا في الكشف عن الأخطاء ومحاربة الأوهام. ومع ذلك، فإن المنظومات المتحكمة في العلم قد تنتج، هي أيضا، أوهاما عديدة ولا وجود لأية نظرية علمية بمنأى بشكل مطلق عن الخطأ. كما أنه ليس بمقدور المعرفة العلمية أن تعالج لوحدها المشاكل الابستمولوجية والفلسفية والأخلاقية.

إن مهمة التربية إذن، على هذا الصعيد، هي كشف مصادر الأخطاء والأوهام والضلالات.

1.1 . الأخْطَاءُ الذِّهْنيَّةُ

ليس بمقدور أية عدة دماغية أن تميز الهلوسة عن الإدراك، والحلم عن اليقظة، والخيال عن الواقع، والذاتي عن الموضوعي.

يلعب الخيال والاستيهام دورا مركزيا لدى الكائن البشري. فبالنظر إلى أن مسالك مداخل ومخارج الجهاز العصبي الدماغي التي تصل الجهاز العضوي بالعالم الخارجي لا تشكل سوى 2% من المجموع، وبالنظر أيضا إلى أن 98% من المسالك المتبقية تقوم بوظائف داخلية، تَشَكَّلَ عَالَمٌ نَفْسِيٌّ مُسْتَقِلٌّ نِسْبِيّاً، هو عالم الأحلام والرغبات والأفكار والصورو الاستيهامات. ويقوم هذا العالم، من ضمن ما يقوم به بتوجيه ومراقبة رؤيتنا للعالم الخارجي. ثم إن كل عقل يحمل داخله إمكانية الكذب على الذات التي هي منبع دائم للأخطاء والأوهام. فالتمركز على الذات والحاجة إلى تبرير الذات والنزوع إلى اعتبار الاخر مصدر الشر، كلها أمور تدفع الفرد إلى الكذب على ذاته دون أن يكشف عن خلفية هذا الكذب باعتباره هو المسؤول عنه.

وتقع ذاكرتنا هي كذلك تحت رحمة الوقوع في الشِّبَاكِ العديدة للخطأ. إن ذاكرة لا تتجدد بالتذكر محكوم عليها بالموت. ولكن يجب أن نعلم أن كل تذكر قد يحيي الذاكرة بقدر ما قد يقتلها. ففكرنا ينزع، بطريقة لا واعية، إلى الاحتفاظ بالذكريات الإيجابية وكبت إن لم نقل محو تلك التي لا تخدمنا. وغالبا ما نكون مرتاحين لمثل هذا العمل التشويهي للذكريات بل إننا نسقط، أكثر من ذلك، في الخلط اللاواعي بين ذكريات وقعت فعلا وأخرى من خلق خيالنا نظن أنها حدثت فعلا. كما أننا غالبا ما ندفع إلى الاعتقاد بكوننا لم نعش قط ذكريات كبتناها لمدة طويلة. بهذه المعنى تقع الذاكرة ـ ذلك المصدر الذي لا محيد عنه للحقيقة ـ تحت رحمة خطر الوقوع في الأخطاء والأوهام.

2.1 . الأخْطَاءُ المَعْرِفِيَّةُ

إن أنظمتنا الفكرية (نظريات، مذاهب، إيديولوجيات) ليست فقط مُعَرَّضَةً للوقوع في الخطأ ولكنها تقوم، أكثر من ذلك، بحماية أخطائها وأوهامها. بعبارة أخرى إن المنطق الداخلي لكل نسق من الأفكار يكمن في مقاومة كل ما لا يتلاءم معه أو لا

يمكن دمجه بداخله. ومع أن النظريات العلمية هي الوحيدة التي تقبل الخضوع لامتحان الدحض، إلا أنها غالبا ما تقاومه. أما المذاهب والنظريات المنغلقة على نفسها والمشدودة إلى حقائق مطلقة، فإنها تبقى منيعة على كل نقد.

3.1. أخْطَاءُ العَقْلِ

إن النشاط العقلاني للفكر هو ما يسمح بالتأكيد بالتمييز بين اليقظة والحلم، الخيال والواقع، الذاتي والموضوعي. ويستند العقل، في ممارسة نشاطه، إلى مراقبة المحيط (حيث يقاوم المحيط، بشكل طبيعي، جموح الرغبة والخيال)، ومراقبة الممارسة (عبر النشاط الاختباري)، ومراقبة الثقافة (عبر مرجعية المعرفة المشتركة)، ومراقبة الجماعة (هل ترى ما أراه؟)، وأخيرا مراقبة الدماغ (من خلال عمل الذاكرة ومختلف العمليات المنطقية). بعبارة أخرى، إن العقلانية هي المسؤولة عن التقويم والمراقبة.

تشكل العقلانية أحسن حماية ضد الخطأ والوهم. وهنا، يجب أن نميز بين عقلانية بنائية تقوم بتشييد نظريات منسجمة مع العمل على التحقق من الطابع المنطقي للجهاز الفكري ومدى ملائمة الأفكار المشكلة للنظرية وملاءمة ملفوظاتها مع المعطيات التجريبية التي تنطبق عليها. على مثل هذه العقلانية أن تظل مفتوحة على ما يعارضها وإلا ستتحول إلى مذهب مغلق فتغدو تبريرا عقلانيا. ثم هناك عقلانية نقدية تهتم بشكل خاص بأخطاء وأوهام المعتقدات والمذاهب و النظريات.

ولكن العقلانية تحمل في طياتها هي أيضا احتمالات الوقوع في الخطأ والوهم عندما تتحول، كما قلت، إلى تبرير عقلاني. إن التبرير العقلاني يدعي العقلانية عندما يتصور أنه يبني نظاما منطقيا كاملا قائما على الاستنباط أو الاستقراء. والحال أن التبرير العقلاني يقوم على أسس مشوهة أو خاطئة ترفض الاختبار التجريبي.

إن التبرير العقلاني منغلق بقدر ما العقلانية منفتحة. ومع أن التبرير العقلاني يمتح من نفس ما تمتح منه العقلانية، إلا أنه يشكل أحد أقوى منابع الأخطاء والأوهام. مثلا، إن مذهبا يوظف نموذجا آليا وحتميا في قراءة العالم هو ليس مذهبا عقلانيا ولكنه يلجأ فقط إلى التبرير العقلاني.

إن العقلانية الحقيقية، المفتوحة بطبيعتها، هي التي تحاور الواقع الذي يعاندها. إنها ثمرة نقاش حجاجي بين الأفكار. وهي ليست حكرا على أي نسق فكري. وكل نزعة عقلانية تتجاهل الكائنات والذاتية والوجدان والحياة هي نزعة لا عقلانية. على العقلانية أن تعترف بأهمية الوجدان والحب والتوبة. العقلانية الحقيقية هي التي تعي جيدا حدود المنطق والنزعة الحتمية والنزعة الآلية. إنها تعلم جيدا أن العقل الإنساني لا يمكنه معرفة كل شيء وأن الواقع يحبل بالألغاز. وهي تتفاوض وتتحدث إلى اللامُعَقْلَن، والغامض، وغير القابل للعقلنة. بذلك فهي ليست فقط نقدية بل تقوم أيضا بنقد ذاتها. باختصار، إننا نتعرف على العقلانية الحقيقية في مدى قدرتها على الاعتراف بحدودها.

والعقلانية ليست أبدا حكرا على العلماء والتقنيين دون الآخرين. فالعلماء الذريون الذين يكونون عقلانيين داخل مجالات تخصصهم وفي حدود ما يفرضه المختبر، قد يتحولون إلى أشخاص لا عقلانيين تماما في السياسة أو في حياتهم الخاصة.

والعقلانية أيضا ليست حكرا على الحضارة الغربية. لقد اعتقد الغرب الأوروبي، لمدة طويلة، أنه الحامل الوحيد للعقلانية راميا بالأخطاء والأوهام والتخلف إلى الثقافات الأخرى. كان الغرب يحكم على الثقافات بمدى انخراطها في مسارات الإنجازات التكنولوجية. والحال أننا نجد، في كل مجتمع، بما في ذلك المجتمع البدائي، حضورا قويا للعقلانية في طريقة صياغة الأدوات وتقنيات الصيد ومعرفة النباتات والحيوانات والمحيط ـ بموازاة الأسطورة والسحر والدين. ومجتمعاتنا الغربية ذاتها حبلى بالأساطير والسحر والدين بما في ذلك أسطورة العقل الموهوب وأسطورة عبادة التقدم. إننا نكون عقلانيين بشكل حقيقي عندما نعترف بوجود التبرير العقلاني في قلب عقلانيتنا وبوجود أساطيرنا الخاصة ومنها أسطورة القوة الخارقة للعقل و أسطورة التقدم الحتمي.

من هنا الضرورة الملحة للاعتراف بمبدأ اللايقين العقلاني مادام أن العقلانية تظل مفتوحة دوما على احتمال تحولها إلى وهم التبرير العقلاني إذا لم تمارس على ذاتها نقدا ذاتيا دائما. إن العقلانية الحقيقية ليست فقط نظرية وليست فقط نقدية ولكنها تقوم أيضا بنقد ذاتي مستمر.

4.1. الضَّلاَلاَتُ المَنْظُومَاتيَّة

إن لعبة الحقيقة والخطأ لا تمارس فقط بأدوات الاختبار التجريبي أو مراقبة درجة الانسجام المنطقي للنظريات، ولكنها تمارس أيضا، وفي العمق، في قلب المنطقة اللامرئية للمنظومات. وهو ما ينبغي للتربية أن تأخذه بعين الاعتبار.

يمكن تحديد منظومة ما بما يلي:

● تعيين وانتقاء المفاهيم المركزية للمعقولية. مثلا يشكل مفهوم النظام في التصورات الحتمية ومفهوم المادة في التصورات المادية ومفهوم الروح في المذاهب الروحانية ومفهوم البنية داخل التصورات البنيوية مفاهيم جوهرية لها وضع مزدوج: إذ ما إن يقع عليها الاختيار حتى تبدأ في اختيار مفاهيم أخرى أو إقصاء المفاهيم المضادة لها أو جعلها تابعة لها (أقصد هنا تباعا مفاهيم اللانظام والروح والمادة والحدث). يتولى المستوى المنظوماتي إذن مهمة انتقاء الأفكار إما بهدف دمجها أو إبعادها خارج الخطاب أو النظرية.

● تعيين العمليات المنطقية الرئيسية: تختبئ المنظومة وراء المنطق لتنتقي العمليات المنطقية وتحولها، بتوجيه منها وتحت مراقبتها، إلى عمليات ترجيحية وملائمة وبديهية (أعني هنا عمليات الإقصاء/الدمج، الفصل/الوصل، التضمن/النفي). إن المنظومة هي التي تعطي الامتياز لبعض العمليات المنطقية على حساب عمليات أخرى، مثل تفضيل الفصل على الوصل. وهي التي تمنح الصلاحية والكونية للمنطق الذي اختارته. فهي إذن التي تمنح للخطابات والنظريات التي تراقبها طابعي الضرورة والحقيقة. تبني المنظومة الأكسيوم وتعبر عن ذاتها داخل الأكسيوم («كل ظاهرة طبيعية تخضع للحتمية...»، «كل ظاهرة إنسانية محضة تتحدد بالتعارض مع الطبيعة...»).

تكمن وظيفة المنظومة إذن في الفرض والمنع. إنها تقوم بانتقاء ومفهمة العمليات المنطقية والمقولات الجوهرية للمعقولية ثم تراقب استعمالها. بهذا المعنى توجه المنظومات الثاوية ثقافيا في الأفراد معرفتهم وتفكيرهم وتصرفاتهم.

لنأخذ المثال التالي: هناك منظومتان اثنتان متعارضتان في ما يخص علاقة الإنسان ← الطبيعة. تدمج المنظومة الأولى الإنسان داخل الطبيعة وكل خطاب

يدخل في إطار هذه المنظومة إلا ويجعل من الإنسان كائنا طبيعيا ويقول بفكرة « الطبيعة الإنسانية »، في حين تفصل المنظومة الثانية الإنسان عن الطبيعة وتعين ما يميز الإنسان عبر نفي فكرة الطبيعة. تتوحد هاتان المنظومتان المتعارضتان في منظومة أعمق، هي منظومة التبسيط التي تفرض - في مواجهة التعقيد المفاهيمي - إما الاختزال (اختزال الإنساني في الطبيعي)، أو الفصل (بين الإنساني والطبيعي). ولهذا السبب تمنع المنظومتان من رؤية وحدة الثنائيات الطبيعية ⟵⟶ الثقافية، الدماغية ⟵⟶ النفسية، في الواقع الإنساني، وكذا علاقة التداخل والاستقلال في آن بين الإنسان والطبيعة. وحدها منظومة مركبة تأخذ بعين الاعتبار جدلية التداخل / الفصل / الوصل تسمح بهذا التصور. ولكن مثل هذه المنظومة لازالت غائبة عن الثقافة العلمية.

تقوم إذن المنظومة، كبنية ثاوية ومهيمنة، بتوجيه كل نظرية أو مذهب أو إيديولوجيا. إنها بنية لا واعية بقدر ما تغذي التفكير الواعي وتراقبه. بهذا المعنى تشكل المنظومة بنية ما يمكن تسميته بالوعي الأعلى. باختصار، تبني المنظومة العلاقات الجوهرية داخل أكسيومات و تعين المفاهيم وتوجه الخطابات أو النظريات. إنها تنظم شكل تنظمها وتولد منها ما سيولد بدوره خطابات ونظريات أخرى أو يعيد إنتاج تلك الموجودة سلفا.

يجب أن نشير هنا إلى « المنظومة الكبرى للغرب » كما صاغها ديكارت وفرضتها التطورات التاريخية لأوروبا منذ القرن السابع عشر. تقوم المنظومة الديكارتية بفصل الذات عن الموضوع وحصر كل طرف داخل دائرته الخاصة. كما تفصل الفلسفة أو البحث التأملي عن العلم أو البحث الموضوعي.

ويخترق هذا الفصل الكون ككل:

الذات / الموضوع
النفس / الجسد
الروح / المادة
الكيف / الكم
الغائية / العلية
الإحساس / العقل
الحرية / الحتمية
الوجود / الماهية

يتعلق الأمر فعلا بمنظومة. فهي تعين المفاهيم المهيمنة وتحدد العملية المنطقية التي يجب العمل بها: ألا وهي الفصل. ولا يمكن خرق هذه المنظومة إلا بشكل سري، هامشي، ومنحرف.

تؤسس المنظومة الديكارتية رؤية مزدوجة للعالم، يتعلق الأمر بعالم واحد منظور إليه من جهتين، فهناك، من جهة، عالم المواضيع الخاضعة للملاحظات والتجاريب ومختلف أنواع التسخير، وهناك، من جهة أخرى، عالم ذوات تطرح أسئلة الوجود والتواصل والوعي و المصير. يشير مثال المنظومة الديكارتية إلى كون منظومة واحدة قد تلعب دورا تنويريا وتعتيميا في الوقت ذاته. فهي تكشف وتحجب. في قلبها إذن تمارس لعبة الحقيقة والخطأ.

2. الاسْتطِبَاعُ والضَّبْطُ

إن حتمية المنظومات والنماذج التفسيرية الحتمية تتقوى بحتمية القناعات والمعتقدات التي تقوم، عندما تكون مهيمنة في مجتمع ما، بفرض القوة الإلزامية للمقدس والقوة الضابطة للمعتقد والقوة التحريمية للطابو على الجميع وعلى كل واحد منا. تتوفر المذاهب و الإيديولوجيات على القوة الملزمة التي تمنح الأمان للمؤمنين بها، كما توظف القوة الزجرية التي تولد الخوف الكابح للآخرين.

تحدد القوة الإلزامية والزجرية للمنظومات والمعتقدات الرسمية والمذاهب المهيمنة والحقائق المتوارثة الكليشهات المعرفية والأفكار الجاهزة التي لا يتم أبدا فحصها والمعتقدات البليدة التي لا تتم أبدا مناقشتها والغباوات المنتصرة، ومختلف أنواع رفض البداهات باسم البداهة. كما تفرض في جميع المجالات، مختلف أنواع المحافظة المعرفية والعقلية.

تقوم المحددات الاجتماعية ـ الاقتصادية ـ السياسية (من سلطة وتراتبية وتقسيم اجتماعي وتخصص مهني فرضه زماننا المعاصر وإضفاء الطابع البيروقراطي التقني على العمل) والمحددات الثقافية باختزال المعرفة داخل حتميات متعددة (في شكل إلزامات ومعايير ومنع وحظر).

وراء المحافظة المعرفية يختبئ إذن استطباع ثقافي يضخ المحافظة في قلب الأشياء ويقصي كل ما من شأنه أن يحتج على البنية المهيمنة أو يهددها.

إن الاستطباع كلمة وضعها كونراد لورانتز للكشف عما يتطبع به الحيوان في مرحلته الأولى (كما عند الطُّيَيرِ الذي يقوم، مثلما تفعل أمه، بملاحقة أول كائن حي في متناوله، وهو ما حكاه لنا أندرسون بطريقته الخاصة في قصة البط الداهية الصغير).
يسم الاستطباع الثقافي البشر منذ ولادتهم، أولا بسمة الثقافة العائلية وبسمة الثقافة المدرسية ثانيا. ويمتد عمل الاستطباع ليشمل الحياة الجامعية والمهنية بعد ذلك.

هكذا فالإنتاج السوسيولوجي والثقافي للأفكار لا يقوم على الحقيقة إلا نادرا. أكثر من ذلك، قد يقضي على البحث عن الحقيقة.

3. عِلْمُ النَّظَرِيَّاتُ المَفْتُوحَةِ: الاسْتِحْوَاذُ

كان كارل ماركس يقول عن حق: «يبدو أن إنتاجات الدماغ البشري تتمتع باستقلال كامل وتتوفر على أجساد خاصة تجعلها تتواصل بشكل دائم مع البشر وفيما بينها كأجساد». أكثر من ذلك، إن المعتقدات والأفكار ليست فقط إنتاجات فكرية ولكنها أيضا كائنات فكرية تتمتع بكامل الحياة والقوة. بهذا المعنى فهي قادرة على أن تستحوذ علينا.

يجب أن نكون واعين بأن فلك الأشياء الفكرية ظهر إلى الوجود منذ فترة طويلة جدا، منذ فجر الإنسانية. إن ظهور الأساطير والآلهة والانتفاضة الهائلة للكائنات الروحية سيدفع الكائن العاقل إلى ممارسة الهذيان والقتل والبشاعة والحب والنشوة، وهي أمور مجهولة لدى العالم الحيواني. ومنذ ذلك الحين ونحن نعيش في قلب غابة الأساطير. إن فلك النظريات يمتح وجوده كليا من أرواحنا ومن فكرنا، إنه يوجد بداخلنا كما أننا نوجد بداخله. لقد تشكلت الأساطير وأصبحت قائمة الذات وذات واقع فعلي انطلاقا من استيهامات أحلامنا وتخيلاتنا. بينما تشكلت الأفكار وأصبحت قائمة الذات وواقعية انطلاقا من الرموز والأفكار التي أنتجتها عقولنا. ثم عادت الأساطير والأفكار لتغزونا وتستحوذ علينا وتمنحنا الحب والكراهية والنشوة والعنف. إن بشرا تحت قبضة أساطير وأفكار لقادر على القتل أو الموت من أجل إله أو فكرة. وفي فجر الألفية الثالثة - ومثلما كان عليه حال الإغريق مع شياطينهم الأسطورية والمسيحيين مع شياطينهم الإنجيلية - لازالت شياطيننا «الفكرية» تجرفنا وتستحوذ على وعينا وتجعلنا لا واعين مع منحنا الوهم بأننا نمتلك وعيا فائقا.

تُخْضعُ المجتمعات الأفراد بواسطة الأساطير والأفكار التي ترتد بدورها على المجتمعات لتخضعها. ولكن بإمكان الأفراد التحكم في أفكارهم ومراقبة المجتمع الذي يراقبهم. ومع ذلك، لا زال هناك مكان لبناء علاقة تكافلية في قلب هذه اللعبة المعقدة (لعبة تكاملية - تعارضية - لا يقينية)، لعبة الاستعباد / الاستغلال / التشويش المتبادل بين المحافل الثلاثة (الفرد ⟷ المجتمع ⟷ فلك النظريات).

لا يتعلق الأمر إطلاقا بأية رغبة في اختزال الأفكار في أدوات محضة أو أشياء خالصة. إن الأفكار توجد بفضل الإنسان ولأجله، كما أن الإنسان يوجد بفضل الأفكار ولأجلها. لا يمكن أن نقوم باستخدام جيد للأفكار ما لم نعرف كيف نخدم الأفكار. ألا ينبغي، في هذا الصدد، الوعي بما يحكمنا لكي نتمكن من محاورة أفكارنا ومراقبتها مثلما تراقبنا وإخضاعها لامتحان الحقيقة والخطأ؟

لا ينبغي تسخير أية فكرة أو نظرية، كما لا ينبغي لأية فكرة أن تفرض أحكامها بطريقة سلطوية. يجب إضفاء الطابع النسبي على الفكرة ويجب ترويضها. ينبغي للنظرية، كيفما كانت أن تساعد وتوجه عمل الاستراتيجيات المعرفية الخاصة بالذوات البشرية.

من الصعب جدا كشف لحظة الانفصال والتعارض بين معطيين امتحا من نفس المنبع: النزعة التفكيرية، أو الشكل الوجودي الضروري للفكرة لكي تمارس عملها في ترجمة الواقع، والنزعة المثالية التي تشير إلى استحواذ الفكرة على الواقع. يتعلق الأمر إذن بصعوبة التمييز بين العقلانية كآلية حوار بين الفكرة والواقع والتبرير العقلاني الذي يمنع قيام مثل هذا الحوار. تضاف إلى ذلك صعوبة الكشف عن الأسطورة الثاوية في قلب العلم أو العقل.

مرة أخرى، نرى أن وسيلتنا العقلية في تحصيل المعرفة هي العقبة العقلية الأولى في وجه المعرفة. سبق للينين أن قال بأن الوقائع هي دوما عنيدة. لكنه لم ير أن فكرة متصلبة كفكرته هي أيضا عنيدة. إننا نعلم جيدا كيف تدمر الأسطورة والإيديولوجيا الوقائع وتلتهمها.

ومع ذلك تبقى الأفكار وسيلتنا في التعرف على حدود ومخاطر الفكرة. من هنا هذا التناقض الحتمي: إذا كان علينا أن نصارع بكل قوة ضد الأفكار، فلا يمكننا

القيام بذلك إلا بالأفكار. لا يجب أن ننسى على الإطلاق أنه ينبغي لنا دوما ألا نترك أفكارنا تتجاوز دورها ووظيفتها في الوساطة بيننا وبين الواقع، وذلك بأن نمنعها من أن تتطابق معه. كما لا ينبغي لنا أن نثق إلا في الأفكار التي تؤمن بأهمية انفتاحها على ما يعاندها. هذه هي مهمتنا الأولى والملحة في صراعنا ضد الوهم.

4. اللاَّمُتَوَقَّعُ

يباغتنا اللامتوقع. ومرد المفاجأة هو كوننا آمنا بوثوقية مبالغ فيها في نظرياتنا وأفكارنا دون أن نعمل على تخصيص أي فضاء لاستقبال الجديد، مع أن هذا الأخير يداهمنا باستمرار و لا يمكن إطلاقا التنبؤ بالطريقة التي سيحل بها. ومع ذلك يجب أن نكون دوما على أهبة الاستعداد لتوقع حدوث اللامتوقع (انظر الفصل ٧: مواجهة اللايقينيات). وينبغي، فور حدوث اللامتوقع، أن نكون مستعدين لمراجعة نظرياتنا وأفكارنا بدلا من أن نقحم بعنف كل ما هو جديد داخل النظرية العاجزة تماما على استقباله.

5. لاَيَقِينُ المَعْرِفَة

ما أكثر مصادر ومسببات الخطأ والوهم التي لا تتوقف عن التجدد داخل المعرفة. وهذا ما يفرض على التربية أن تطرح التساؤلات الكبرى حول مدى قدرتنا على المعرفة. وطرح مثل هذه التساؤلات هو المتنفس لكل عملية بناء للمعرفة. فمثلما كان الأكسجين يقتل الكائنات الحية الأولى إلى أن بدلت الحياة وظيفته بأن حولته إلى مخلص من الانسمام، فإن اللايقين يقتل المعرفة البسيطة بقدر ما يحيي المعرفة المركبة. على كل حال، تظل المعرفة مغامرة على التربية أن توفر لها كل الزاد الضروري.

يجب أن تشكل معرفة المعرفة، تلك التي تدمج الذات داخل معرفتها، مبدأ التربية وضرورتها المستديمة.

علينا أن نفهم أنه من الضروري توفر شروط بيو-انتربولوجية (قدرات الدماغ ←→ الفكر البشري)، وأخرى سوسيو ثقافية (الثقافة المفتوحة التي تسمح بحوار الأفكار وتبادلها)، وشروط فكرية (النظريات المفتوحة) إذا ما أردنا طرح

التساؤلات «الحقيقية»، أي التساؤلات الأساسية حول العالم والإنسان والمعرفة ذاتها.

علينا أن نفهم أيضا أنه من المستحيل، داخل المعرفة، فصل الملاحظة عن الملاحظة الذاتية، والنقد الذاتي عن النقد، والتأمل عن الموضعة.

وعلينا أن نعلم أن البحث عن الحقيقة يتطلب بناء ميطازوايا للنظر تمكن من ارتداد المعرفة على الذات العارفة، وتسمح، بشكل خاص، بدمج الملاحظ ـ المدرك داخل الملاحظة ـ الإدراك وتبيئة الملاحظة ـ الإدراك في السياق الذهني والثقافي الخاص بالملاحظ.

أكثر من ذلك، بإمكاننا توظيف الاستحواذ الذي تمارسه الأفكار علينا لأجل أن نخضع أنفسنا لأفكار النقد والنقد الذاتي والانفتاح والتعقيد. إني لا أتحكم في الأفكار التي أدافع عنها بقدر ما تتحكم هي في.

بشكل أعم، علينا توظيف لعبة الإخضاع المتبادل هاته، أي كوننا نراقب أفكارنا بقدر ما تراقبنا، في أفق تحويل هذا الإخضاع المتبادل إلى تكافل وتعايش. وهذه قضية حاسمة لأنها تتعلق بجعل علاقتنا بأفكارنا وأساطيرنا علاقة تكافلية.

على الفكر البشري أن يحتاط من إنتاجاته الفكرية التي هي ضرورية وحيوية له في نفس الوقت. إننا في حاجة لأن نجعل عقولنا وأفكارنا تتفاوض فيما بينها ويراقب بعضها البعض لتفادي كل نزعة مثالية وكل تبرير عقلاني. إننا في حاجة للتبادل وللتواصل مع كل مكونات عقلنا. يجب أن نعي الحضور القوي للهو والنحن داخل خطابنا. وعلينا أن نحذر أيضا من الكذب على النفس.

إننا في حاجة لأن نهذب نظرياتنا. علينا إذن بجيل جديد من النظريات المفتوحة والعقلانية والنقدية والتأملية الذاتية القادرة على إصلاح ذاتها بذاتها.

إننا في حاجة إلى ميطازوايا للنظر إلى فلك النظريات وإلى عقولنا ذاتها. إننا في حاجة إلى بلورة وتجذر المنظومة التي تسمح بالمعرفة المركبة.

نعلم أن احتمالات الوقوع في الخطأ والوهم عديدة ومتجددة. هناك أولا الأخطاء النابعة من الخارج الثقافي والاجتماعي والتي تعيق تحقق الاستقلال التام للفكر، وتمنع ممارسة البحث عن الحقيقة. ثم هناك الأخطاء النابعة من الداخل والثاوية أحيانا في أجود أدواتنا المعرفية والتي تجعل العقول تنخدع حول نفسها بنفسها.

كم من العذابات والضلالات سببتها الأوهام والأخطاء على مر التاريخ البشري وبشكل مرعب في القرن العشرين. وهذا ما يجعل المشكل المعرفي قضية أنتروبولوجية وسياسية واجتماعية وتاريخية. إن أهم شيء يمكن أن يتحقق خلال القرن الواحد والعشرين هو ألا يظل الرجال والنساء مجرد لعبة لا واعية ليس فقط في يد أفكارهم ولكن من خلال كذبهم على ذواتهم. وإنه لواجب رئيسي للتربية أن تمنح لكل فرد السلاح الضروري داخل الصراع الحيوي من أجل الوضوح.

الفصل الثاني

مَبَادِئٌ مِنْ أجْلِ مَعْرِفَةٍ مُلائِمَةٍ

1. عَنِ المُلاءمَةِ فِي المَعْرِفَةِ

يجب البدء بمعرفة المشاكل الجوهرية للعالم - حتى وإن كانت مثل هذه المعرفة صعبة ومشكوك فيها، وإلا سنظل نعاني من الإعاقة المعرفية. إن العصر الكوكبي يتطلب موضعة كل شيء في السياق والمركب الكوكبيين. وهنا، تشكل معرفة العالم كعالم ضرورة عقلية من الطراز الأول. إن المشكل الكوني لكل مواطن في الألفية الثالثة هو: كيف يمكن معرفة العالم وكيف يمكن تنظيم هذه المعرفة؟ كيف يمكن أن ندرك وأن نحافظ على السياق والشمولي (العلاقة الكل/الأجزاء) والمتعدد الأبعاد والمركب؟ يجب إصلاح الفكر لكي نتمكن من مفصلة وتنظيم المعارف وبالتالي تمثل مشاكل العالم ومعرفتها بشكل أفضل. والحال أن مثل هذا الإصلاح يجب أن يكون منظوماتيا وليس برنامجيا. وهذه هي قضية التربية الأولى لأنها تتعلق بقدرتنا على تنظيم المعارف.

وبالفعل، توجد هوة عميقة بين معارفنا المجزأة والمقطعة والوقائع أو المشاكل التي أصبحت متعددة التخصصات وعرضانية ومتعددة الأبعاد وشمولية وكوكبية أكثر من أي وقت مضى.

وبفعل هذه الهوة لم نعد نرى:

- السياق،
- الشمولي،
- المتعدد الأبعاد،
- المركب.

ولكي تكون معرفة ما معرفة ملائمة، يجب أن تعمل التربية على توضيح ما يلي :

1.1. السِّيَاق

كل معرفة تعتمد على معطيات أو معلومات معزولة تظل ناقصة. يجب موضعة المعارف والمعطيات داخل سياقها لكي يكون لها معنى. فكل كلمة تحتاج، لكي يكون لها معنى، إلى النص الذي هو سياقها الخاص؛ ويحتاج النص إلى سياق حتى يكون بالإمكان إنتاجه. فكلمة حب مثلا يتغير معناها بحسب ما إذا كنا في سياق ديني أو سياق دنيوي. ولن يكون لاعتراف بالحب نفس المعنى بحسب ما إذا كان من يتلفظ به هو من يمارس الغواية أو من يتعرض لها.

يشير كلود باستيان إلى أن «التطور المعرفي لم ينتج أبدا مزيدا من التجريد بقدر ما اتجه نحو مزيد من موضعة المعارف داخل سياقها»[1]. إن السياق هو الذي يحدد شروط دمج المعارف وحدود صلاحيتها. ثم يضيف باستيان بأن «الموضعة داخل السياق شرط جوهري لتحقيق فعالية السيرورة المعرفية».

2.1. الشُّمُولِي (العَلاَقَاتُ بَيْنَ الكُلِّ والأجْزَاءِ)

يشير الشمولي إلى أكثر من السياق. إنه المجموع الذي يضم أجزاء مختلفة ترتبط به إما بعلاقة ارتدادية أو تنظيمية. مثلا، إن مجتمعا معينا هو دائما أكثر من السياق. إنه كل منظم للأجزاء. ولا نشكل نحن سوى جزء منه. والكوكب الأرضي هو أكثر من مجرد سياق. إنه كل منظم ومخل للنظام في الوقت ذاته.

يشتمل الكل على خصائص لا نجدها في الأجزاء المعزولة. وقد يدمر اشتغال الكل بعض خصائص الأجزاء. كان مارسيل موس يقول: «يجب إعادة تشكيل الكل». يجب بالفعل إعادة تشكيل الكل للتمكن من معرفة الأجزاء.

وهنا تكمن فضيلة هذا المبدأ الباسكالي: «كل الأشياء المسببة والمسببة، المدعمة والداعمة، المباشرة وغير المباشرة، تتصل فيما بينها بعلاقة طبيعية لا حسية

1) كلود باستيان: «الفرق بين المنطق والمعرفة»، رسالة المركز الوطني للبحث العلمي، رقم 79، **العلوم المعرفية**، أكتوبر، 1992.

تجسر الهوة بين الأشياء الأكثر بعدا واختلافا عن بعضها البعض. لذلك أجزم بأنه يستحيل معرفة الأجزاء دون معرفة الكل ولا معرفة الكل دون معرفةخاصة بالأجزاء »[2].

إضافة لذلك، نجد لدى الكائن البشري ولدى كل كائن حي هذه الخاصية الجوهرية: حضور الكل داخل الأجزاء. فكل خلية تحمل مجموع الإرث الجيني للجهاز العضوي المتعدد الخلايا، وكل فرد يحمل مجموع المجتمع، (معرفته ولغته وواجباته وضوابطه). بذلك، فمثلما تحمل كل نقطة من الهولوغرام مجموع المعرفة التي تقدمها، فإن كل خلية متفردة وكل فرد بعينه يحملان بشكل هولوغرامي مجموع الكل، إذ يعتبر الفرد جزءا من الكل، كما يعتبر في نفس الوقت الكل جزءا من الفرد.

3.1. المُتَعَدِّدُ الأَبْعَاد

تعتبر الوحدات المُرَكَّبَة مثل الكائن البشري أو المجتمع وحدات متعددة الأبعاد: فالكائن البشري هو في الوقت ذاته كائن بيولوجي ونفسي واجتماعي ووجداني وعقلاني. ويضم المجتمع أبعادا تاريخية واقتصادية وسوسيولوجية ودينية. على المعرفة الملائمة أن تعترف بهذا التعدد في الأبعاد وأن تدمج معطياته: وهنا لا يمكننا فقط فصل جزء عن الكل ولكن لا يجب علينا أيضا فصل الأجزاء عن بعضها. فالبعد الاقتصادي مثلا يرتد دوما على مختلف الأبعاد الإنسانية الأخرى. ثم إن الاقتصادي يحمل في طياته، وبشكل هولوغرامي، حاجات ورغبات وأهواء إنسانية تتجاوز بكثير حدود مصالح الاقتصادي المحض.

4.1. المُرَكَّبُ

من اللازم للمعرفة الملائمة أن تواجه ما هو مركب. تعني كلمة «complexus» ما تم «نسجه ككل». وبالفعل، يوجد ما هو مركب حيثما تم وصل مختلف العناصر المكونة للكل (كالاقتصادي والسياسي والسوسيولوجي والنفسي والوجداني والأسطوري)، وكلما تم الأخذ بعين الاعتبار علاقة الترابط والتفاعل والارتداد بين موضوع المعرفة وسياقه، بين الجزء والكل، بين الكل والأجزاء، والأجزاء فيما بينها. إن

2) باسكال، **أفكار**، نص حققه ليون برانشفيك، منشورات فلاماريون، باريز، 1976.

المركب هو إذن العلاقة بين الوحدة والتعدد. من المهم أن نضع جيدا في الحسبان أن مستجدات وتطورات عصرنا الكوكبي تضعنا أكثر فأكثر وبشكل لا رجعة فيه أمام تحديات ما هو مركب.

لذلك يتوجب على التربية أن تطور « مهارة عامة » قادرة على استثمار السياق بطريقة متعددة الأبعاد وعلى استثمار السياق والشمولي.

2 . المَهَارَةُ العَامَّةُ

إن الفكر البشري هو بعبارة هـ.سيمون عملية طرح وحل المشاكل العامة. وخلافا لرأي شائع، يدفع تطوير القدرات العامة للفكر في اتجاه تطوير الكفاءات الخاصة أو المتخصصة. وبقدر ما تكون المهارة العامة قوية بقدر ما تكون قدرتها على تمثل المشاكل الخاصة كبيرة. ومن جهته، يتطلب فهم المعطيات الخاصة تفعيل المهارة العامة التي تثير تنظيم المعارف وتلقي الضوء على كل حالة خاصة على حدة.

وينبغي للمعرفة، في سعيها لبناء ذاتها بالاستناد للسياق وللشمولي وللمركب، أن تستنفر بالفعل كل ما تعرفه الذات العارفة عن العالم. وكما قال فرانسوا ريكاناتي: « كل فهم للملفوظات هو مسار تأويلي غير مجزوء يستنفر المهارة العامة والمعرفة بالعالم بشكل أوسع. لذلك فهو لا يمكن أن يختزل في عملية تستهدف فك الشفرات ». لابد إذن من الاعتراف بوجود تداخل قوي بين مسار بناء المعرفة وتفعيل المهارة العامة.

على التربية أن تطور القدرة الطبيعية للفكر على طرح وحل المشاكل الجوهرية. كما عليها، موازاة مع ذلك، تحفيز الاستعمال الكامل للمهارة العامة. ولا يمكن القيام بذلك على الوجه الأكمل إلا بالممارسة الحرة لملكة الفضول بوصفها الملكة الأكثر شيوعا وحيوية في مرحلتي الطفولة والمراهقة والتي غالبا ما يقوم التعليم بكبتها. إن التربية هي تحفيز شعلة الفضول أو ايقاظها إذا ما خمدت.

وموازاة مع مهمتها في تطوير المهارة العامة للأفراد، يتوجب على التربية أن توظف المعارف المتوفرة وتتجاوز عقبة تبعثر وتجزئ المعرفة المختصة (انظر 1.2) وتفضح العقلانية الخاطئة.

1.2. التَّنَاقُضُ

ليس باستطاعة أي أحد نفي التقدم الهائل الذي حققته المعارف في إطار وبفضل التخصصات في مختلف الميادين خلال القرن العشرين. ولكن هذا التقدم أسفر بالمقابل عن تراجع خطير في المعرفة بسبب أن التخصص يلغي السياق ولا يولي أدنى اهتمام للشموليات والمركبات. وهو ما راكم عقبات كثيرة منعت من ممارسة المعرفة الملائمة داخل أنظمتنا التعليمية.

إذ أن هذه الأخيرة تقوم بفصل الإنسانيات عن العلوم وتلجأ، داخل العلوم ذاتها، إلى عزل المباحث عن بعضها البعض فتصير هذه الأخيرة مباحث فائقة التخصص وشديدة الانغلاق على ذاتها.

بذلك يتم حجب الوقائع الشمولية والمركبة وتقطيع الإنسان وتجزيء أبعاده بين مختلف القطاعات المعرفية (حيث تختص شعبة البيولوجيا بدراسة البعد البيولوجي بما في ذلك الدماغ، وشعب العلوم الإنسانية بالأبعاد النفسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية المعزولة عن بعضها البعض، وشعب الأدب والشعر بالقضايا الذاتية والوجودية والشعرية، ويتم سجن الفلسفة - التي هي بطبيعتها تأمل في الإنساني - داخل الأسوار المغلقة لشعبة الفلسفة).

بذلك يتم الرمي بالمشاكل الجوهرية والشمولية خارج دائرة العلوم المتخصصة. وبالرغم من أنه يتم الاحتفاظ بها داخل الفلسفة إلا أنه لا يتم أبدا تطعيمها بإسهامات العلوم.

نتيجة لذلك يفقد الفكر - الذي يشكل، كما سبق، في ظروف تشتت المعارف وتبعثرها - قدرته الطبيعية على موضعة المعارف داخل سياقها ودمجها داخل إطاراتها الطبيعية. ويفضي هذا الضعف في إدراك الشمولي إلى إضعاف الإحساس بالمسؤولية (حيث يتقوقع كل واحد داخل تخصصه). كما يفضي إلى إضعاف مبدأ التضامن (فكل واحد لا يستشعر أبدا علاقته مع مواطنيه).

3. المَشَاكِلُ الجَوْهَرِيَّةُ

1.3 الفَصْلُ والتَّخَصُّصُ المُغْلَقُ

● في الواقع يمنع التخصص الفائق[3] من رؤية الشمولي (حيث يقوم التخصص بتجزيئه إلى قطع مفصولة عن بعضها البعض)، والجوهري (الذي يتم كبته). كما يمنع أيضا الدراسة السديدة للمشاكل الخاصة التي يستحيل تناولها خارج سياقها. والحال أنه لا يمكن بتاتا تقطيع المشاكل الجوهرية ولا غض الطرف عن المشاكل الشمولية. وفي الوقت الذي كانت فيه الثقافة العامة تشجع على الدوام على طرح معرفة أو فكرة ما داخل سياقهما، تقوم الثقافة العلمية والتقنية الحالية بتجزيء المعارف وتقطيعها، جاعلة من الصعب جدا موضعتها داخل سياقها. في نفس الوقت، يجعل تجزيء المباحث من الصعب تمثل ما تم « نسجه ككل »، أي المركب، بحسب المعنى الأصلي للكلمة.

في العمق، تشكل المعرفة المتخصصة شكلا خاصا من أشكال التجريد. يتمثل التخصص المجرد في فصل الموضوع عن سياقه ومجموعه وأيضا عن علاقاته وتفاعلاته مع محيطه في أفق دمجه داخل بناء مفاهيمي مجرد متعلق بمبحث مجزّأ، تدمر حدوده بشكل عشوائي نسقية (علاقة جزء معين بالكل) الظواهر وتعدد أبعادها. إنه يفضي إلى تجريد رياضي يقوم بتلقاء ذاته بفصل الظواهر عن الملموس لصالح ما يقبل التكميم والصورنة.

مثلا يعتبر الاقتصاد، الذي هو العلم الاجتماعي الأكثر تطورا من الناحية الرياضية، العلم الأكثر تأخرا على المستويات الاجتماعية والإنسانية لأنه انفصل تماما عن السياقات الاجتماعية والتاريخية والسياسية والبيئية المرتبطة بالأنشطة الاقتصادية. وهذا هو ما يفسر لماذا أصبح الاقتصاديون عاجزين أكثر فأكثر عن فهم وإدراك أسباب ونتائج التقلبات المالية والبورصوية وعاجزين أيضا عن التنبيء واستشراف المستقبل الاقتصادي بما في ذلك التنبؤ القصير المدى. بهذا المعنى يعتبر العلم الاقتصادي المسؤول الأول عن الخطأ الاقتصادي.

3) أي التخصص الذي ينغلق على ذاته ولا يسمح باندماجه داخل إشكالية عامة أو تصور كلي للموضوع الذي يختزل في واحد من مظاهره أو أجزائه.

2.3. الاخْتِزَالُ والفَصْلُ

إلى حدود منتصف القرن العشرين، كانت جل العلوم تعمل بمبدأ الاختزال، اختزال معرفة الكل في معرفة الأجزاء، كما لو أن تنظيم الكل ينتج عنه خاصيات أو سمات جديدة غير موجودة في الأجزاء المعزولة.

يؤدي مبدأ الاختزال بطبيعة الحال إلى اختزال ما هو مركب في البسيط، حيث يتم تطبيق المنطق الآلي والحتمي الخاص بالآلات الاصطناعية على المركبات الحية والإنسانية. يقوم مبدأ الاختزال بإقصاء كل ما لا يقبل التكميم والقياس، حاجبا بذلك إنسانية الإنسان، من أهواء وعواطف ومعاناة وفرح. كما أنه يقمع الصدفوي والجديد ويسد الطريق أمام الابتكار عندما يطبق المبدأ الحتمي بشكل صارم.

وبما أن التربية التي تلقيناها علمتنا الفصل والتجزيء وعدم الربط بين المعارف، فلقد تحولت هذه الأخيرة بسرعة إلي مجموع يستعصي على الفهم عندما ننظر إليه ككل، حيث تمنع عنا رؤية التفاعلات والارتدادات والسياقات والمركبات التي تصل بين المباحث المعرفية، كما تختفي المشاكل الإنسانية الكبرى لصالح المشاكل التقنية المتخصصة. إن العجز عن تنظيم المعرفة المبعثرة يسفر، بشكل خطير، عن شل القدرة الذهنية الطبيعية على موضعة المعرفة داخل سياقاتها وعلى البناء الشمولي.

تقوم الرؤية المقطعة والمبعثرة والآلية والاختزالية والعازلة بتشتيت مركب العالم إلى قطع مفصولة عن بعضها البعض وبتجزيء المشاكل وبفصل ما هو مرتبط وبإضفاء الطابع الأحادي على المتعدد الأبعاد. إنها رؤية قصيرة النظر غالبا ما تتحول إلى رؤية عمياء. فهي تقتل في المهد إمكانات الفهم والتأمل وتقلل من فرص بناء الأحكام السديدة أو الرؤى البعيدة النظر. لذلك، فبقدر ما تصبح المشاكل متعددة الأبعاد بقدر ما يتعذر تمثلها في تعدد أبعادها، وبقدر ما تستفحل الأزمة بقدر ما تكبر صعوبة التفكير في الأزمة، وبقدر ما تكون المشاكل كوكبية بقدر ما يتم غض الطرف عنها نهائيا. إن عجز الرؤية العمياء عن تمثل السياق والمركب الكوكبيين هو الذي يجعل كل واحد غير واع وغير مسؤول تماما.

3.3. العَقْلانِيَّةُ الخَاطِئَةُ

يفترض دان سيمون في نص خيالي علمي (هيبريون وما تلاها) أن مركزا تقنيا متطورا جدا يوظف معطيات الذكاء الاصطناعي ويسيره ويراقبه تقنقراط جعل من مهامه المراقبة التامة للبشر أنفسهم. إن رهان البشرية هو الاستفادة من التقنيات دون الخضوع إليها.

والحال أننا سائرون في طريق الخضوع للذكاء الاصطناعي الذي تم زرعه وترسيخه بشكل عميق في الأذهان في شكل فكر تقنوقراطي. إن هذا الأخير، الذي يصلح في كل ما يتعلق بالآلات الاصطناعية، يبقى عاجزا عن فهم الكائن الحي والكائن الإنساني حتى و إن قدم نفسه على أنه الفكر العقلاني الوحيد.

بهذا المعنى تهيمن العقلانية الخاطئة، أي التبرير العقلاني المجرد والأحادي البعد، على مجموع الأرض[4].

في كل مكان وعلى امتداد عقود من الزمن سمحت مقترحات ومشاريع - قدمت على أنها تخدم العقل والتقدم وتجارب الشعوذة والتي لا ترى في عادات ومخاوف الشعوب سوى تعبيرا عن الخرافات - بإغناء البشرية بقدر ما أضعفتها، ودمرت بقدر ما أبدعت. فعلى مستوى الكوكب ككل، يؤدي استصلاح واجتثات الأشجار من فوق مساحات شاسعة إلى لا توازن مائي وتصحر في الأراضي. وإذا لم توقف الاجتثاثات العمياء فستتحول منابع النيل إلى وديان جافة مجمل السنة وسينضب الأمازون. لقد قضت

4) نعلم أن مشاريع كانت لها أهداف ونيات حسنة أفضت - بعدما خضعت للعقلانية الخاطئة - إلى نتائج كارثية ومضرة بالنتائج الجيدة ذاتها المحصل عليها. مثلا، لقد حققت الثورة الخضراء التي هدفت إلى تغذية العالم الثالث نموا كبيرا في الموارد الغذائية ومكنت من تفادي النقص والمجاعة، ورغم ذلك، تطلب الأمر مراجعة السياسة الغذائية ككل التي قامت على دعوى تحقيق انتاجية قصوى من خلال الاستعمال المفرط، وعلى مساحات شاسعة جدا، لجينوم نباتي واحد له قوة إنتاجية لا تضاهى. لقد تبين ان غياب او إغفال التنوع الجيني سمح للجينوم الممرض - الذي لم يكن بإمكان الجينوم الأصلي مقاومته - بتدمير محصول سنة بأكملها. وهذا ما فرض العودة إلى ممارسة التنوع الجيني لتفادي مجموع هذه المخاطر.

من جهة أخرى، يؤدي الاستعمال المفرط للأسمدة إلى إفقار التربة، والسقي الذي لا يأخذ بعين الاعتبار طبيعة التربة إلى التعرية، كما تدمر المبيدات المتراكمة التوازن بين الأنواع بإبادتها للأنواع الضارة والنافعة معا، كما قد تشجع في بعض الأحيان نمو وتكاثر نوع ضار يطور مناعة قوية ضد المبيدات ذاتها. أما المواد السامة في المبيدات فتمر إلى المواد الغذائية وعبرها إلى أجساد المستهلكين.

الفلاحات النمطية الكبرى على الفلاحات المتنوعة الصغرى والمنذورة إلى توفير الغذاء للسكان المحليين الشيء الذي أدى إلى مضاعفة المجاعة وفرض الهجرة القروية وانتشار مدن الصفيح في المدار الحضري. وكمايقول فرانسوا كارزنسكي: «تحدث هذه الفلاحات التصحر بالمعنى المزدوج للكلمة: فهي تعمل على تعرية الأراضي وتؤدي إلى هجرة السكان القرويين». إن تبرير مثل هذا الأمر بفعالية الفلاحات النمطية الكبرى دون الأخذ بعين الاعتبار حاجات البشر غير القابلة للتكميم وللتحديد هو المسؤول مباشرة عن مضاعفة ضواحي ومدن جديدة عبارة عن غيتوهات ومراكز كبرى للملل ولتجمع الأوساخ والتدهور والإهمال والانحراف وتفكك الهوية. إن أهم إنجازات هذه العقلانية التقنوقراطية البيروقراطية تمت في الاتحاد السوفياتي سابقا: حيث تم تحويل مجرى أنهار بكاملها من أجل سقي، وفي فترات الحرارة القصوى، هكتارات عارية مخصصة لزراعة القطن، مما رفع من كمية الملح في سطح الأرض بفعل صعود الملح من باطن الأرض وبخر المياه الجوفية وجفف بحر أورال. لقد كان للتدمير، في الاتحاد السوفياتي، نتائج أفظع بكثير مما حصل في الغرب بسبب أن البيروقراطية التقنوقراطية السوفياتية لم تخضع قط لمساءلة ومحاسبة المواطنين. وللأسف، وبعد سقوط الامبراطورية السوفياتية، استدعى حكام الدول الجديدة خبراء ليبراليين من الغرب تجاهلوا عن عمد أن اقتصادا تنافسيا هو في حاجة إلى مؤسسات وقواعد وقوانين. وسبب عجزهم في وضع الاستراتيجية المركبة الضرورية ـ التي تفرض (كما وضح موريس آلي، رغم أنه رجل اقتصاد ليبرالي) برمجة عملية إنهاء البرمجة والتخطيط لعملية نزع التخطيط ـ أدى هذا العجز إذن إلى كوارث جديدة، وهي كوارث إنسانية لم نعلم أي شيء عن ضحاياها ونتائجها مثلما يحصل لنا مع ضحايا ونتائج الكوارث الطبيعية.

عاش القرن العشرون تحت قبضة تبرير عقلاني قدم نفسه على أنه العقلانية الوحيدة. وهذا بالضبط ما أعدم في المهد إمكانيات الفهم والتأمل وبعد النظر. لقد شكل عجز التبرير العقلاني عن تمثل المشاكل الأكثر خطورة أحد المشاكل الأكثر خطورة للبشرية.

من هنا ينشأ التناقض التالي: لقد حقق القرن العشرون تقدما هائلا في المعرفة العلمية والتقنية بقدر ما تجاهل المشاكل الشمولية والجوهرية والمركبة. لقد أنتج عصرنا،

أكثر من أي عصر آخر، عددا كبيرا من الأخطاء والأوهام، وبالخصوص من لدن العلماء والتقنيين والخبراء.

لماذا؟ لأنه تم تجاهل مبادئ المعرفة الملائمة. يؤدي تجزيء المعارف وتقطيعها إلى استحالة تمثل ما تم «نسجه ككل».

لذلك، أفلا ينبغي للقرن الجديد أن يتجاوز العقلانية المشوهة والمشوِّهة لكي يتمكن البشر أخيرا من التحكم في عقلانيتهم؟

يتعلق الأمر بتعويض فكر يفصل بين الأشياء ويختزلها بفكر يميز ويربط بينها. لا يتعلق الأمر بالتخلي عن معرفة الأجزاء لصالح معرفة الكليات ولا ترك التحليل لصالح التركيب. المطلوب هو استثمار الاثنين معا. لا يجب أن ننسى أننا أمام تحديات تفرضها بشكل حتمي تطورات عصرنا الكوكبي.

الفصل الثالث

تَعْلِيمُ الشَّرْطِ الإِنْسَانِي

من المفـروض أن تشـتـمـل التـربيـة على تعليم أولي وكـوني يخـتص بالشـرط الإنساني. لقد دخل البشر تجربة العصر الكوكبي خصوصا وأن مغامرة مشتركة توحد بينهم أينما كانوا. عليهم أن يتبادلوا الاعتراف بإنسانيتهم المشتركة كإطار موحد لهم. عليهم أيضا أن يأخذوا بعين الاعتبار ويحترموا تنوعهم الفردي والثقافي.

أن تعرف الإنسـان هو أن تموضعـه داخل الكون لا أن تفـصله عنه. وكـمـا رأينا ذلك في الفصل الأول، على كل معرفة أن تؤطر موضوعها داخل سياقه لتكون ملائمة. فسؤال «من نحن؟» يستحيل فصله عن سؤال «أين نحن؟» و«من أين جئنا؟» و«إلى أين نحن ذاهبون؟».

أن نسائل الشرط الإنساني إذن هو أن نسائل أولا وقبل كل شيء وضعنا داخل العالم. لقد مكن التقدم الكبير للمعارف في نهاية القرن العشرين من إلقاء ضوء جديد تماما على وضع الكائن البشري داخل الكون. كما مكنت التراكمات العلمية خلال سنوات 70/60 من القرن العشرين (تراكمات الكوسمولوجيا وعلوم الأرض وعلم البيئة وعلم الحياة وعلم ما قبل التاريخ)، من تغيير نظرتنا للكون والأرض والحياة والإنسان نفسه. ولكن ما زالت كل هذه الاسهامات مفصولة عن بعضها البعض. فالإنسان ما زال مجزءاً ومقطعا لذا فقدنا إمكانية النظر إليه كوحدة مركبة.

هنا يطرح مشكل ابستمولوجي: إذ من المستحيل تمثل الوحدة المركبة للإنسان لا بواسطة فكر يجزئ إنسانيتنا ويقطعها إلى جزر مفصولة عن بعضها البعض - بعيدا عن الكون الذي يحيط بها وعن المادة الفيزيائية والحية التي تتشكل منها - ولا بواسطة فكر يختزل الوحدة الإنسانية في جوهر بيوتشريحي خالص. يجب ألا نتجاهل أيضا

حالة التبعثر والتجزيء الذي تعيشه العلوم الإنسانية، وهو التبعثر الذي جعل من الصعب تمثل التعقيد الإنساني، كما تلاشى الإنسان «وكأنه مجرد أثر على الرمل». باختصار، لقد تعمق الجهل بالكل بقدر ما تحقق تقدم أكيد في مجال المعرفة بالأجزاء.

لذلك من الضروري جدا لم شتات معارف العلوم الطبيعية في أفق موضعة الشرط الإنساني داخل العالم. من الملح أيضا لم شتات المعارف الإنسانية للتمكن من تمثل تعدد الأبعاد والمركبات الإنسانية. من المهم، إضافة إلى ذلك، استحضار واستثمار مقترحات الإنسانيات ليس فقط بالنسبة للفلسفة والتاريخ ولكن أيضا حتى بالنسبة للشعر والأدب والفنون.

1. التَّجَذُّر ـــ الإجْتَثَاثُ الإنْسَانِيّ

يجب أن نعترف بتجذرنا المزدوج في العالم الفيزيائي وفي الفلك الحي بقدر ما يجب الاعتراف باجتثاثنا الإنساني المحض. إننا نعيش، في الوقت ذاته، داخل الطبيعة وخارجها.

1.1. الشَّرْطُ الكَوْنِيُّ

لقد تخلينا مؤخرا عن فكرة كوننا نعيش داخل كون منظم وكامل وخالد لصالح أطروحة مفادها أن الكون ظهر من جراء إشعاع ويوجد منذ ذلك الحين في صيرورة تبددية حيث يتفاعل (بشكل تكاملي وتنافسي وتعارضي) كل من النظام والاختلال والتنظيم.

إننا نحيى داخل كون ضخم في توسع مستديم ومشكل من ملايير المجرات وملايير النجوم. إننا نعلم أن أرضنا ليست سوى جزء صغير جدا يدور حول نجم تائه على هامش مجرة صغيرة توجد بدورها على هامش الكون. من المرجح أن ذرات أجهزتنا العضوية ظهرت منذ الثواني الأولى لظهور الكون منذ (ربما؟) اثنتي عشر مليار سنة، ثم تشكلت ذراتنا الكاربونية داخل شمس سابقة جدا على شمسنا، ثم تجمعت جزيئاتنا خلال الأزمنة الاختلاجية الأولى للأرض. وتجمعت هذه الجزئيات الكبرى بدورها داخل زوابع تحولت إحداها، بفضل تنوعه وغناه الذري، إلى نظام ذي

طبيعة جديدة مقارنة مع النظام الكيميائي تحديدا. لقد أصبح الكون عبارة عن تنظيم ذاتي حي.

إن هذه الملحمة الكونية للتنظيم، التي تخضع أكثر فأكثر إلى قوى الاختلال والتبدد، هي أيضا ملحمة الترابط التي أنقذت الكون من التبعثر والانهيار المبكر له. وداخل هذه المغامرة الكونية، وفي مقدمة التطور الهائل لهذا الجزء المتفرد من التنظيم الذاتي الحي، لا زلنا نتابع السير بطريقتنا الخاصة.

2.1. الشَّرْطُ الفِيزِيَائِيُّ

في البدء، تجمعت مادة فيزيائية بشكل دينامي حراري فوق الأرض. وبفعل التبليل البحري والاختلاط الكيميائي والتفريغ الكهربائي، ظهرت الحياة. يجب أن نعلم أن حياتنا مصدرها شمسي: حيث تشكلت جميع مكوناتها داخل شمس وتجمعت فوق كوكب لفظته الشمس. لقد نتجت الحياة عن سيلان ضوئي منبعث من تجمع زوابع شمسية وهاجة. لقد تشكلنا، نحن الأحياء، من قشة من شتات كوني، أي من بقايا من الوجود الشمسي، ثم أصبحنا براعم صغيرة جدا داخل الوجود الأرضي.

3.1. الشَّرْطُ الأَرْضِيُّ

إننا جزء من المصير الكوني ولكننا لا نحتل سوى حيز صغير وهامشي فيه: فكوكبنا هو ثالث فلك تابع لشمس فقدت وضعها كمركز وتحولت إلى نجم قزم تائه بين ملايير النجوم في قلب مجرة هامشية من كون في توسع دائم.

لقد تشكل كوكبنا منذ خمس مليارات سنة، انطلاقا في الغالب من بقايا كونية ناتجة عن انفجار نجم شمسي سابق. ومنذ أربع مليارات سنة ولد التنظيم الحي من قلب زوابع ذرية كبرى حدثت في قلب الأعاصير والاختلاجات الأرضية.

لقد ظهرت الأرض وتنظمت ذاتيا بارتباط قوي بالشمس ثم تشكلت في شكل مركب جيوفزيائي منذ اللحظة الأولى لظهور محيطها الحيوي.

إننا، في الوقت ذاته، كائنات كونية وأرضية. لقد ولدت الأرض داخل / بفعل اختلاجات أرضية وكادت مغامرتها أن تتوقف مرتين على الأقل (الأولى عند نهاية

العصر الأول والثانية خلال العصر الثاني) : تم تطورت ليس فقط في شكل أنواع مختلفة ولكن أيضا في شكل أنظمة بيئية حيث شكلت أنواع القنص والافتراس سلسلة غذائية مسؤولة عن الحياة والموت.

يجب أن نعلم أن كوكبنا يسبح في الكون. وعلينا استخلاص النتائج من وضعيته الهامشية التي هي أيضا وضعيتنا.

وبوصفنا كائنات حية من هذا الكوكب فإننا مرتبطون بشكل حيوي بالمحيط الحيوي الأرضي. يجب الاعتراف بالشرط الفزيائي والبيولوجي لهويتنا الأرضية.

4.1 . الشَّرْطُ الإنْسَانِيُّ

تشكل الأنسنة شرطا حاسما للتربية على الشرط الإنساني، لأنها تبين بجلاء كيف أن الحيوانية والإنسانية تحددان معا شرطنا الوجودي.

تبين الانتروبولوجيا ما قبل التاريخية كيف أن الأنسنة تشكلت كمغامرة مستمرة على مدى ملايين السنين. ولقد نجمت عن هذه المغامرة قطائع كبرى (خلق أنواع جديدة: الإنسان العاقل والإنسان البدائي والإنسان المروض والإنسان الحاذق، واختفاء أخرى، ثم ظهور اللغة والثقافة). كما سمحت بظهور الكائنات ذات القائمتين واستعمال اليدين في مختلف الأعمال و تواصل مسار ترويض الجسد وتشكل الدماغ كعضو يقوم بوظائفه كاملة[5] وظهور مرحلة التشبيب (الذي يعني احتفاظ الراشد بسمات عامة عن الفترة الجنينية وبالطباع النفسية لمرحلة الشباب). وأخيرا، سمحت مغامرة الأنسنة بتواصل مسار التعقيد الاجتماعي (الذي يتجلى في الظهور المتواقت للغة والثقافة، بوصفها خزانا لا محيد عنه من المعارف والخبرات والمعتقدات والأساطير التي يتم تداولها من جيل لآخر...).

تشكل الأنسنة في حد ذاتها بداية جديدة. ففي ظلها يتأنسن الإنسان. مما يجعلنا أمام مدخل مزدوج لمفهوم الإنسان: واحد حيوي فزيائي وآخر نفسي واجتماعي وثقافي. وكلا المدخلان يحيلان إلى بعضهما البعض.

5) يتوفر الأسترالوبيطيك (نوع من الرئيسات المؤنسنة) على دماغ من حجم 508 سم 3، والإنسان الحاذق على دماغ من حجم 680 سم 3 ، والإنسان المروض على دماغ من حجم 800-1100 سم 3، والإنسان المعاصر على دماغ من حجم 1200-1500 سم 3.

إننا أطفال الكون والحياة والطبيعة. ولكننا تحولنا، بسبب إنسانيتنا وفكرنا وثقافتنا ووعينا، إلى غرباء داخل الكون الذي هو فضاؤنا الحميمي. إن فكرنا ووعينا يمكناننا من معرفة هذا العالم الفزيائي بقدر ما يبعداننا عنه. فمجرد النظر إلى الكون بطريقة عقلانية وعلمية هو في حد ذاته عزل لنا عن الكون. لقد تطورنا في ما وراء العالم الفزيائي والحيوي. وفي هذا الماوراء توسعت إنسانيتنا بشكل كبير.

ومثلما الشأن بالنسبة لنقطة ما في الهولوغرام، إننا نحمل في قلب خصوصيتنا ليس فقط مجموع البشرية وكل الحياة ولكن أيضا مجموع الكون بما في ذلك لغزه الثاوي في قلب الطبيعة البشرية. ومع ذلك، لسنا كائنات حية يمكن معرفتها وفهمها انطلاقا فقط من الكوسمولوجيا والفزياء والبيولوجيا والسيكولوجيا.

2. إنْسَانيَّةُ الإنْسَان

1.2. وَحْدَةُ الثُّنَائيَّات

إن الإنسان هو، في الوقت ذاته، كائن بيولوجي كليا وثقافي كليا، أي كائن يحمل في داخله وحدة الثنائيات الأصلية. إنه كائن حي فائق وخارق: حيث طور بشكل هائل إمكانات الحياة - وبشكل متضخم - خصائص التمركز على الذات والانفتاح على الغير. إن الإنسان كائن قادر على الوصول إلى أوج الحياة، بشطحاتها ونشواتها القصوى. ثم إنه يندفع بشكل أعمى نحو النزوات التهتكية والإغافية. لذلك يبقى الإنسان - الكائن العاقل، وبناء على هذا الامتلاء الخارق بالحيوية، مفتوحا على الدوام على الإنسان - الكائن الجنوني.

إن الإنسان إذن كائن بيولوجي كليا. والثقافة، بالتأكيد، هي التي تمكنه من الخروج من أسفل مراتب الرئيسات. تراكم الثقافة ما تم الاحتفاظ به ونقله وتعلمه، كما تتضمن معايير ومبادئ الاكتساب.

2.2. حَلَقَةُ الدِّمَاغِ ـــ الفكْرِ ـــ الثَّقَافَةُ

لا تتحقق إنسانية الإنسان بشكل كامل إلا داخل الثقافة. ولا توجد ثقافة بلا دماغ بشري (باعتباره الآلة البيولوجية المسؤولة عن الفعل والإدراك والمعرفة والتعلم).

كما لا وجود للفكر (باعتباره القدرة على الوعي والتفكير) إلا بالثقافة. إن الفكر البشري يولد ويتحقق داخل العلاقة الدماغ ـ الثقافة. وما إن يولد الفكر حتى يرتد على الدماغ ليحدد طريقة اشتغاله. هناك إذن ثالوث دائري يجمع بين الدماغ ←→ الثقافة ←→ الفكر

حيث لا غنى لأي طرف عن الأطراف الأخرى. الفكر إذن هو نتاج للدماغ الذي يفرز الثقافة التي لا يمكن لها أن تكون إلا بالدماغ.

3.2. حَلَقَةُ العَقْلِ ←→ الوِجْدَانِ ←→ الغَرِيزَةِ

في نفس الوقت نجد أنفسنا أمام ثالوث بيوانتربولوجي مغاير لثالوث الدماغ ←→ الفكر ←→ الثقافة. حدد مالك لين[6] بشكل جيد محتوى وطريقة اشتغال هذا الثالوث: فالدماغ يشتمل على (أ) المنطقة القديمة للدماغ، وريثة الدماغ الهامي (يتعلق بالزواحف) والمسؤولة عن العدوانية والنزو والغرائز الأولية، (ب) المنطقة المتوسطة للدماغ، وريثة دماغ الثدييات الأولى، وحيث بدا أن حيوانا مثل حصان البحر دمج تطور الوجدان وتطور الذاكرة الطويلة المدى؛ (ج) المخ، الذي كان أصلا متطورا جدا عند الثدييات إلى درجة أنه يغطي جميع بنيات الدماغ ويشكل نصفي كرة الدماغ. وبفعل التطور، اتخذ الدماغ لدى البشر شكل دماغ متضخم الذي هو موطن القدرات التحليلية والمنطقية والاستراتيجية التي تقوم الثقافة بتحيينها بشكل كامل. بذلك نكتشف الوجه الآخر للتعقيد الإنساني والمتمثل في حضور الحيوانية (الثديية والهامية) في قلب الإنسانية وحضور الإنسانية في قلب الحيوانية [7]. إن المحافل الثلاثة تتكامل بقدر ما تتعارض، حيث تحيل إلى الصراعات التقليدية بين الغريزة والقلب والعقل. هناك علاقة ترابط بين هذه المكونات الثلاث، إنها لا تخضع إلى أية علاقة تراتبية من قبيل العقل ←— الوجدان ←— الغريزة. إن العلاقة بينها هي بالأحرى علاقة غير مستقرة، متحولة، متكررة بشكل دائم.

6) ب.د. مالك لين: «الدماغ الثلاثي»، منشورات سميث (ف.ك)، **العلوم الدماغية**، البرنامج الدراسي الثاني، روكفيلير، المنشورات الجامعية، نيويورك 1970.

7) كما رأينا ذلك في الفصل السابق، يفرض علينا هذا المعطى الربط الوثيق والدقيق بين الوجدان والعقل. وهو ما توضحه بجلاء أعمال: أ. دامازيو: **الغلط الديكارتي**، منشورات أوديل جاكوب، باريز، و ج د. فانسان بيولوجيا الأهواء، منشورات أوديل جاكوب، باريز.

لا تتوفر العقلانية إذن على السلطة العليا. إنها كباقي المحافل الأخرى. إذ تدخل في علاقة تنافس وتعارض مع المحافل الثلاثة غير المفصولة عن بعضها البعض. إنها محفل هش: فبالإمكان إخضاعها بل السيطرة عليها من قبل الوجدان أو الغريزة. فالغريزة القاتلة قد توظف مثلا آلة المنطق الهائلة وتسخر العقلانية التقنية لتنظيم وتبرير ما تقوم به.

4.2. حَلَقَةُ الفَرْدِ ← المُجْتَمَعِ ← النَّوْعِ

أخيرا هناك العلاقة الثالوثية الفرد ← المجتمع ← النوع. إن الأفراد هم ثمرة المسار نفسه الذي يقوم، باعتباره مولد الثقافة ومأواها، بالارتداد على الأفراد ليعيد إنتاجهم.

لا يمكننا إضفاء الطابع المطلق على الفرد وجعله الغاية العليا في هذه الحلقة: الفرد ← المجتمع ← النوع، كما لا يمكننا أيضا أن نضفي الطابع المطلق على المجتمع أو النوع. على المستوى الأنتروبولوجي، يحيى المجتمع لأجل الفرد الذي يحيى بدوره لأجل المجتمع، كما يحيى المجتمع والفرد لأجل النوع الذي يحيى لأجل الفرد والمجتمع. فكل طرف داخل هذه العلاقة هو في الآن ذاته غاية ووسيلة: فالثقافة والمجتمع يسمحان بالتحقق المركب للأفراد، والتفاعلات بين الأفراد هي ما يمكن من استمرار الثقافة والتنظيم الذاتي للمجتمع. مع ذلك بالإمكان جعل رقي الأفراد وحريتهم في التعبير أساس مشروعنا الأخلاقي والسياسي من دون أن نتوهم بأن هذا يجعل من الأفراد غاية الثالوث الفرد ← المجتمع ← النوع. من المستحيل تمثل التعقيد الإنساني بفصله عن العناصر المكونة له. إذ أن كل تقدم إنساني فعلي يعني وجود تقدم موازي لاستقلال الفرد، وللمشاركة الجماعية وللإحساس بالانتماء للنوع البشري.

3. الوَحْدَةُ المُتَعَدِّدَة: الوَحْدَةُ والتَّنَوُّعُ البَشَرِيَّيْن

على التربية أن ترسخ فكرة وحدة التنوع البشري دون ضرب فكرة التنوع الذي يطبعه. كما ينبغي لها أن تعلم فكرة التنوع دون المساس بفكرة الوحدة. توجد وحدة إنسانية بقدر ما يوجد تنوع إنساني. والوحدة لا تتجلى فقط في الخصائص البيولوجية

للإنسان العاقل، كما أن التنوع لا يختص فقط بالسمات النفسية والثقافية والاجتماعية للكائن البشري. هناك تنوع بيولوجي في قلب الوحدة الإنسانية بقدر ما هناك وحدة ليس فقط دماغية ولكن أيضا ذهنية ونفسية ووجدانية وعقلية. بالإضافة لذلك، تتوحد الثقافات والمجتمعات الأكثر اختلافا في مبادئ مولدة ومنظمة مشتركة. فالوحدة الإنسانية تحمل داخلها مبادئ اختلافاتها المتعددة. أن نفهم الكائن البشري هو أن نتمثل وحدته في قلب تنوعه، وتنوعه داخل وحدته. باختصار، يجب إدراك وحدة المتعدد وتعدد الواحد.

وعلى التربية أن تبرز مبدأ الوحدة/التنوع هذا في جميع المجالات.

1.3. المَجَالُ الفَرْدِيُّ

يتعلق الأمر هنا بجدلية الوحدة/التنوع الجيني عند الفرد : فكل فرد يحمل داخله، على الأصعدة الجينية والتشريحية والفزيولوجية، مجموع سمات النوع البشري وفي نفس الوقت يتميز بخصوصيته الجينية والتشريحية والفزيولوجية. كل كائن بشري يحمل داخله خصائص دماغية وذهنية ونفسية ووجدانية وعقلية وذاتية، إنها في نفس الوقت عبارة عن خصائص مشتركة بين جميع البشر، وعبارة عن خصائص تعكس تفرده.

2.3. المَجَالُ الاجْتِمَاعِي

في المجال الاجتماعي، نكون أمام وحدة/تنوع الألسن (يتعلق الأمر بألسن مختلفة تشترك في خاصية التمفصل المزدوج، مما يجعل منا توائم في اللغة ومختلفين في الألسن)، كما أن هناك وحدة/تنوع يخص التنظيمات الاجتماعية والثقافية.

3.3. التَّنَوُّعُ الثَّقَافِي وتَعَدُّدُ الأَفْرَادُ

بإمكاننا الحديث عن ثقافة (بصيغة المفرد) مثلما يحق لنا الحديث عن ثقافات (بصيغة الجمع).

تتشكل الثقافة من مجموع المعارف والخبرات والقواعد والضوابط والممنوعات والاستراتيجيات والمعتقدات والأفكار والقيم والأساطير التي تتوارث من جيل لآخر.

إن كل واحد منا يحمل ويحقق مجموع هذه المكونات التي تكمن وظيفتها في توجيه المجتمع والحفاظ عليه بوصفه مركبا نفسيا واجتماعيا. فلا وجود لأي مجتمع، قديما كان أم معاصرا، إلا بالثقافة. ومع ذلك، فالثقافة تحافظ دوما على خصوصيتها. صحيح أن كل ثقافة توجد داخل ثقافات متعددة لكنها لا يمكن أن توجد إلا بهذه الثقافات.

بإمكان التقنيات أن تهاجر من ثقافة إلى أخرى، كما كان الحال قديما مع العجلة ومربط القطار والبوصلة والمطبعة. ولقد حصل الشيء ذاته مع بعض المعتقدات الدينية والأفكار العلمانية التي استطاعت هجرة ثقافتها الأصلية نحو الكونية. ومع ذلك، تحافظ الثقافة دوما على رأسمال خاص من المعتقدات والأفكار والأساطير وخصوصا ما يتعلق منها بما يصل جماعة متفردة بأسلافها وبتقاليدها وبأمواتها.

إن من يؤمنون بتنوع الثقافات يميلون إلى التقليل من قيمة الوحدة البشرية؛ وينزع أولئك الذين يقفون عند الوحدة البشرية إلى غض الطرف على تنوع الثقافات. من المهم تدارك الأمر وإدراك وحدة تضمن وتدعم التنوع بقدر ما يجب طرح التنوع داخل أفق الوحدة.

إن ازدواجية وحدة/تنوع الثقافات ازدواجية أساسية. تحافظ الثقافة على الهوية الإنسانية وبشكل أدق على الأشياء الأكثر خصوصية فيها. وتحافظ الثقافات على الهويات الاجتماعية في أدق خصوصيتها. وقد تعطي الثقافات الانطباع بأنها تنغلق على ذاتها حفاظا على هويتها الخاصة. لكنها في الواقع تظل دوما مفتوحة: إذ أنها تدمج داخلها ليس فقط المعارف والتقنيات ولكن أيضا الأفكار والتقاليد والمأكولات والأفراد الآتين من آفاق أخرى. وكل ربط بين ثقافتين فيه إغناء للثقافات ذاتها. إنه يفضي إلى إنجازات خلاقة بفضل التهجينات الثقافية، كتلك التي أعطت الفلامنكو وموسيقى أمريكا اللاتينية والراي. وعلى العكس من ذلك، يشكل تدمير ثقافة ما بفعل الهيمنة التقنية ـ الحضارية خسارة للبشرية جمعاء والتي يشكل تنوع ثقافتها أحد أغلى كنوزها.

إن الكائن البشري إذن كائن واحد ومتعدد في نفس الآن. لقد سبق لي أن قلت إن كل كائن بشري يحمل الكون كله في داخله، تماما كالنقطة الهولوغرامية. علينا أن نعترف بأن كل كائن، حتى ذلك الأكثر انغلاقا في أتفه تجليات حياته يحمل تعدد دياته الداخلية وشخصياته الافتراضية وعددا كبيرا من الشخصيات الخرافية، هذا

فضلا عن كونه يعيش وجودا متعددا يتراوح بين الواقعي والمتخيل، النوم واليقظة، الطاعة والعصيان، الظاهر والباطن، بين تجمهرات بدائية منكمشة على ذاتها داخل كهوفها وفج من الانفتاحات لا حد لها. كل واحد منا يحمل في داخله مجرات من الأحلام والاستيهامات وخزانات لا تنضب من الرغبات والحب، وكهوفا من المآسي، وما لا يمكن تقديره من اللامبالاة القاتلة، والعواطف الجياشة والكراهية المتدفقة، والانحرافات الحمقاء، والاشراقات العميقة، وعواصف الجنون...

4.3. العَقْلُ ــــ الجُنُونُ

ينبغي للقرن الواحد والعشرين أن يتخلى عن الرؤية الأحادية التي تنظر إلى الإنسان من وجهة نظر عقلانية (الإنسان العاقل) وتقنية (الإنسان الصانع)، ونفعية (الإنسان الاقتصادي)، ومن وجهة نظر حاجاته الضرورية (الإنسان النثري). إن الإنسان كائن مركب يتشكل من أزواج من الخاصيات المتعارضة.

العقل / الجنون
العمل / اللعب
الواقع / الخيال
الاقتصاد / التبذير
النثر / الشعر

إن الإنسان كائن عاقل وعامل وواقعي واقتصادي ونثري بقدر ما هو منذور للوجدان وللأسطورة وللجنون وللعب وللتبذير وللخيال وللشعر أي أنه منذور للحب وللحمية وللمشاركة وللنشوة. الحب قصيدة. إن حبا حديث الولادة يغرق العالم شعرا، وحبا مستمرا يسقي الحياة اليومية شعرا، وحبا منتهيا يرمي بنا في أحضان النثر.

لذلك فالكائن البشري لا يحيى فقط بالعقلانية والتقنية ولكنه يجهد نفسه وينذرها للرقصات وللجذبات وللأساطير وللسحر ولطقوس أخرى. إنه يؤمن بفضائل التضحية، فلقد عاش في الغالب متطلعا إلى الحياة الأخرى، حياة ما بعد الموت. في كل **مكان، يباشر نشاطه التقني والعملي والذهني الذي يشهد على وجود عقل تجريبي - عقلاني.**

وفي كل مكان أيضا، تشهد الأعياد والاحتفالات بما تمارسه من استعباد وما تفرضه علينا من أشكال التمجيد والتبذير على وجود جوانب لا عقلانية في الإنسان. إن أنشطة اللعب والاحتفال والطقوس ليست مجرد أوقات استراحة قبل العودة إلى العمل. ولا يمكن اختزال الاعتقاد في الآلهة والأفكار في مجرد أوهام أو شعوذات. فلهذا الاعتقاد جذور عميقة جدا في قلب الممارسات الأنتروبولوجية باعتبارها ممارسات محايثة لطبيعة الكائن البشري.

هناك على الدوام علاقة ظاهرة أو باطنية بين الروح والوجدان والسحر والأسطورة والدين، بقدر ما هناك علاقة وحدة وازدواجية بين الإنسان الصانع والإنسان اللاعب وبين الإنسان العاقل والإنسان المجنون. ولم يستطع أبدا تطور المعرفة العقلانية التجريبية التقنية لدى الإنسان محو المعرفة الرمزية والأسطورية والسحرية أو الشعرية.

5.3. الإِنْسَانُ المُرَكَّبُ

إننا كائنات طفولية وعصابية وهذيانية بقدر ما نحن كائنات عاقلة. وهذا ما يشكل النسيج الإنساني بامتياز.

إن الإنسان كائن عاقل وأخرق، وقادر، في الوقت ذاته، على الرزانة والتهور. إنه كائن يتوفر على طاقة وجدانية كثيفة وغير قارة. إنه كائن يضحك ويبتسم ويبكي بقدر ما أنه قادر على المعرفة موضوعيا. وهو أيضا جاد ومخطط بقدر ما هو متوجس وقلق وعياش ونشوان وشطحي. إنه كائن منذور للعنف وللحنان، وللحب والكراهية. إنه كائن يتخيل بقدر ما هو قادر على الالتصاق بالواقع، يعلم بوجود الموت ويرفضها، ينتج الأسطورة والسحر ولكن أيضا العلم والفلسفة. إنه كائن يعبد الآلهة والأفكار ويشك في الوقت ذاته في الآلهة وينتقد الأفكار. إنه يوظف ويمتح من أفكار متحقق منها ولكن أيضا من أوهام وخرافات. وعندما تتوقف المراقبة العقلانية والثقافية والمادية، يقع الخلط بين الموضوعي والذاتي، والواقعي والخيالي، وعندما تهيمن الأوهام والتهور الجامح، يخضع الإنسان الجنوني الإنسان العاقل ويوظف مهارة العقل في خدمة أوهامه.

لذلك يشكل الجنون قضية مركزية لدى الإنسان ولا يجب أن ننظر إليه كشيء زائد و كمرض. لقد كان الجنون دوما موضوعا مألوفا في الفلسفة القديمة والحكمة الشرقية ولدى الشعراء من مختلف البقاع وعند الوعاظ كإيرازم مونطاني وباسكال

وروسو. لكنه اختفى كموضوع ليس فقط من الايديولوجيا الانسية التي نذرت الإنسان لقيادة الكون ولكن أيضا من العلوم الإنسانية والفلسفة.

لم يتسبب الجنون أبدا في انقراض النوع البشري. (وحدها الطاقات الذرية من إنتاج العقل العلمي، وكذا تطور العقلانية التقنية على حساب المحيط الحيوي قادران على اقتياده إلى نهايته). ومع ذلك كم من الوقت أهدر في طقوس وعبادات وتزيينات ورقصات وفي عدد لا يحصى من الأوهام. ورغم ذلك، اكتسح التقدم التقني والعلمي كل شيء. ورغم ذلك أيضا، أنتجت الحضارات الفلسفة والعلوم، فهيمنت البشرية على الأرض.

كل هذا لأقول إن تطور التعقيد تحقق على الرغم، وبفعل، ومع الجنون البشري.

لقد كانت العلاقة الحوارية بين العقل ⟷ الجنون على الدوام خلاقة ومبدعة بقدر ما كانت مخربة. فالفكر والعلوم اغترفت من الحياة العميقة للوجدان وللأحلام وللقلق وللرغبات وللتخوفات وللآمال. باختصار، إن الإنجازات البشرية تقع، على الدوام، تحت قبضة القيادة المزدوجة للعقل ⟷ الجنون.

لقد كبح الجنون العقل بقدر ما حث عليه. لقد سبق لأفلاطون أن لاحظ أن ديكا، أي القانون الحكيم، وهو ابن إبريس، أي التهور.

كم من الاندفاعات العمياء دمرت أعمدة معبد القهر، كما حصل في الاستيلاء على الباستيلي، وبالمقابل، كم من عبادة للعقل أفضت إلى المقصلة.

ترجع القدرة العبقرية للكائن البشري إلى استحالة سجنه كلية في قانون الواقع وفي منطق السنن الجيني (الدماغ الجديد) والثقافة والمجتمع. فالبحث والاكتشاف يتقدمان بفعل وفي قلب اللايقين وما لايقبل الحسم. والعبقرية تنبعث من كوة ما هو غير القابل للضبط، هناك حيث يحوم الجنون. ويتفجر الإبداع من العلاقة بين الأعماق الدفينة الوجدانية النفسية وشعلة الوعي المتوهجة.

بذلك يكون فحص ودراسة التعقيد الإنساني أحد أهم مهام التربية. على التربية أن تبرز وتشخص المصير المتعدد للإنسان، أي مصيره كنوع بشري ومصيره كفرد ومصيره الاجتماعي والتاريخي، وكلها مصائر متكاملة ومتعالقة بشكل قوي. وعلى التربية أن تدفعنا نحو المعرفة والوعي بالشرط الإنساني المشترك لكل البشر وكذا الوعي بغنى وضرورة تنوع الأفراد والثقافات والشعوب. وأخيرا على التربية أن تدفع نحو تجذرنا كمواطني هذه الأرض.

الفصل الرابع

تَعْلِيمُ الهُوِّيَة الأرْضِيَّة

« وحده الحكيم يحرص على الدوام كي يكون تفكيره يشمل كل شيء، فهو لا ينسى أبدا العالم، إنه يفكر ويتصرف حسب ما يقتضيه الكون ».

غروتيوزن

« لأول مرة فهم الإنسان حقا، انه مقيم في هذا الكوكب، ولربما عليه أن يفكر أو يتصرف وفق منظور جديد، وليس فقط انطلاقا من منظور الفرد، والعائلة، والجنس (البشري)، أو انطلاقا من منظور الدولة، أو مجموعة من الدول، ولكن أيضا انطلاقا من منظور كوكبي ».

فرنادسكي

لكي يستطيع مواطنوا الألفية الجديدة، أن يفكروا في مشاكلهم ومشاكل زمانهم، عليهم أن يفهموا في نفس الوقت معنى الشرط الإنساني في العالم، ومعنى شرط العالم الإنساني الذي أصبح، خلال التاريخ الحديث، عبارة عن عصر كوكبي.

لقد دخلنا منذ القرن 16 في العصر الكوكبي، وها نحن قد وصلنا مع نهاية القرن 20 إلى مرحلة العولمة. إن العولمة، كمرحلة حالية للعصر الكوكبي، تعني أولا، كما عبر عن ذلك جيدا العالم الجغرافي جاك ليفي، « انبثاق شيء جديد: إنه العالم كما هو فعلا ». لكن كلما كنا خاضعين للعالم صعب علينا الإمساك به. ففي زمن الاتصال عن بعد، وفي زمن الأخبار والأنترنيت، يستغرقنا تعقد العالم، كما أن التدفق الكبير للأخبار حول هذا العالم يغرق إمكانياتنا المسخرة لإضفاء المعقولية عليه.

هل بإمكاننا الحديث عن وجود مشكل حيوي بامتياز، تكون كل المشاكل الحيوية الأخرى تابعة له؟ لكن هذا المشكل الحيوي هو ذاته مكون من مجموعة من

المشاكل الحيوية، الشيء الذي يعني الحديث عن التلاحم الداخلي، والذي يجمع بين المشاكل، والتناقضات، والأزمات، والسيرورات غير المضبوطة. إن المشكل الكوكبي هو عبارة عن كل يتغذى بعناصر متعددة، ومتصارعة، ومتأزمة. إنه يضم جميع هذه العناصر، يتجاوزها ، ويعمل بالمقابل على تغذيتها.

إن ما يفاقم صعوبة معرفة عالمنا، هو نمط التفكير الذي خنق فينا القدرة على وضع الأمور في سياقها والنظر إليها بمنظور شمولي، عوض أن يعمل على تطوير هذه القدرة لدينا. بينما نجد أن العصر الكوكبي يقتضي منا أن نفكر في شمولية هذا العصر، وفي علاقة الكل بالأجزاء، أي في أبعاده المتعددة، وفي بنيته المركبة. وهذا ما يُحيلنا على إصلاح التفكير، كما تطرقنا إلى ذلك في الفصل الثاني، بما هو إصلاح ضروري لكي ندرك الأشياء في سياقها، وفي شموليتها، وفي أبعادها المتعددة، وفي بنيتها المركبة.

إن المشكل يكمن في العمل البَنَّاء / الهَدَّام للتأثيرات، والمتعلقة بالتأثيرات المتبادلة للأجزاء على الكل وللكل على الأجزاء. ومن هذا المنطلق، فإنه يتوجب علينا إدراك البنية المركبة للعالم، بما هي بنية غير محتملة، بحيث يتعين علينا أن نأخذ بعين الاعتبار في نفس الوقت وحدة وتعدد السيرورة الكوكبية، في عناصرها التكاملية وكذا في عناصرها المتضادة. إن الكوكب ليس نسقا شموليا، بقدر ما هو عاصفة لا يقر لها قرار.

يتطلب الكوكب تفكيرا متعدد التمركزات يكون قادرا على تبني رؤية كونية، ليست مجردة، بل رؤية واعية بوحدة / بتعدد الشرط الإنساني، إنه تفكير متعدد التمركزات يتغذى من مختلف ثقافات العالم. تلك هي غاية التربية التي يجب عليها أن تعمل، في العصر الكوكبي، على تشكل الهوية والوعي الأرضيين.

1 . العَصْرُ الكَوْكَبِيُّ

لقد بدأ التاريخ الإنساني بتشتت كوكبي للجنس البشري، طال كل القارات. ثم اغترف ودخل، منذ العصور الحديثة، في العصر الكوكبي المتميز بالتواصل بين أجزاء هذا التشتت البشري.

لم يحدث هذا التشتت انشقاقا وراثيا، ذلك أن مختلف الأجناس: الأقزام، السود، الصفر، الهنود، البيض، كلها منحدرة من نفس النوع وتتوفر على نفس الطباع الأساسية الخاصة بالإنسانية. لكن أنتج هذا التشتت تعددية هائلة في الألسن، وفي الثقافات، وفي المصائر، هذه التعددية هي التي كانت مصدر كل الابتكارات والإبداعات، التي حصلت في جميع الميادين. إن كنز الإنسانية يكمن في تعدديتها الخلاقة، لكن مصدر إبداعيتها يكمن في وحدتها المخصبة. فمع نهاية القرن 15م كانت صين الميج، وهند المغول أهم الحضارات الموجودة على وجه البسيطة. وكان الإسلام، في آسيا وفي أفريقيا، هو الديانة الأكثر انتشارا في الكرة الأرضية. كما انتشرت الإمبراطورية العثمانية انطلاقا من آسيا وتوسعت في اتجاه أوربا الشرقية، وعملت على تدمير الإمبراطورية البيزنطية، وهددت فيينا، بل أصبحت عبارة عن قوة أوروبية كبيرة. بينما كانت إمبراطوريتا الأنكا والأزتيك تسودان في أمريكا كلها كما كانت كوزوكو، مثلها في ذلك مثل طينوشتيطلان تتجاوز من حيث ساكنتها، وآثارها، وإشراقها، عواصم كمدريد، ولسبون، وباريز، ولندن، والتي كانت مجرد عواصم لأمم فتية وصغيرة من الغرب الأوروبي.

ورغم ذلك، وانطلاقا من سنة 1492، فإن هذه الأمم الفتية والصغيرة هي التي اندفعت في اتجاه غزو العالم. واعتمادا على المغامرة، والحرب، والموت، أفرزت العصر الكوكبي، الذي أصبح من الآن فصاعدا يعمل على مد جسور التواصل بين القارات الخمس في السراء والضراء. إن هيمنة الغرب الأوروبي على باقي العالم سبب في كوارث حضارية، وعلى الخصوص داخل القارة الأمريكية، كما سبب في تخريبات ثقافية غير قابلة للإصلاح، وفي أنواع رهيبة من العبودية. هكذا فقد انطلق العصر الكوكبي وتطور، بفعل العنف، والتخريب، والعبودية، والاستغلال الوحشي للأمريكتين ولإفريقيا. فالعُصيَّات والفيروسات الأوراسية (نسبة لأوروبا ولآسيا)، انقضت على أمريكا محدثة مذابح حقيقية، وذلك من خلال زرع أمراض فتاكة مثل، الحصبة، والقوباء، والزكام، والسل. بينما كانت تنتقل عدوى داء السيفيليس من جنس إلى آخر، من أمريكا إلى شنغاين، كان الأوروبيون يزرعون في أراضيهم الذرة الصفراء، والبطاطس، الفاصولياء، والطماطم، والمينهوت، والمحموديات، والكاكاو،

والتبغ المستورد من أمريكا. لقد كانوا يجلبون إلى أمريكا الأغنام، والأبقار، والجياد، والزروعيات، والكروم، وأشجار الزيتون، والنباتات المدارية، والأرز، والإنيام، والبن، وقصب السكر.

لقد تطورت النزعة الكوكبية بفضل نقل الحضارة الأوروبية إلى القارات الأخرى، وبفضل نقل أسلحتها، وتقنياتها، وتصوراتها بصدد كل ما يدخل تحت تصرفها، سواء تعلق الأمر بما وصلت إليه من مراكز متقدمة، أو ما احتلته من مناطق. هكذا شهد التصنيع والتقنية إقلاعا لم تشهده بعد أية حضارة على الإطلاق. ذلك أن الإقلاع الاقتصادي، وتطور قنوات الاتصال، وإدماج القارات التابعة في السوق العالمية، كل هذا أدى إلى تدفقات هائلة من الهجرات، سيعمل النمو الديموغرافي[1] المعمم على تضخيمها. ففي النصف الثاني من القرن 19، سيقطع 21 مليون أوروبي المحيط الأطلسي في اتجاه الأمريكتين. كما ستحدث هجرات متدفقة كذلك في آسيا، حيث سيحط الرحال الصينيون كتجار في سيام، في جافا، وفي شبه جزيرة ماليزيا، ثم سيبحرون في اتجاه كاليفورنيا، وفي كولومبيا البريطانية، وفي بلاد الغال الجديدة الجنوبية، وفي بولينيزيا، بينما سيتمركز الهنود في ناطال (بإفريقيا الجنوبية)، وكذا في إفريقيا الشرقية.

لقد نجم عن هذه النزعة الكوكبية في القرن 20 حربان عالميتان، وأزمتان اقتصاديتان عالميتان، كما سينجم بعد 1989 تعميم الاقتصاد الليبيرالي المسمى بالعولمة. إن الاقتصاد العالمي هو عبارة عن كل مترابط أكثر فأكثر: إذ أصبح كل جزء من أجزاءه مرتبط بالكل، والعكس بالعكس حيث أصبح الكل خاضعا للاختلالات وللمخاطر التي تطال الأجزاء. وهذا يعني أن الكوكب تقلص، فقد تطلب الأمر من ماجلان ثلاث سنوات للقيام بجولة بحرية عبر العالم (1519 ـ 1522). وفي القرن 19 استغرق رحالة مقدام 80 يوما، لكي يقوم بجولة عبر العالم مستعملا الطرق البرية والسكك الحديدية والسفن البخارية. ومع نهاية القرن 20، بلغنا إلى أقصى ما يمكن البلوغ إليه، إذ بإمكاننا أن نقوم بجولة عبر العالم في 24 ساعة. خاصة وأن كل شيء أصبح حاضرا لدى الجميع بشكل آني، من أقصى نقطة في الكوكب إلى أدناها، وذلك

1) خلال قرن واحد ارتفع النمو الديموغرافي بأوروبا من 190 إلى 423 مليون نسمة، وانتقل عدد سكان العالم من 900 مليون إلى 3 ملايير.

عير التلفزة، والهاتف، والفاكس، والأنترنيت...

أصبح العالم أكثر فأكثر عبارة عن كل. كل جزء في العالم، أصبح أكثر فأكثر عبارة عن جزء لا يتجزأ من هذا العالم. كما أن العالم بما هو كل، أصبح حاضرا أكثر فأكثر داخل كل جزء من أجزائه. هذا شيء مثبت لا فقط بالنسبة للأمم والشعوب، بل حتى بالنسبة للأفراد. فمثلما أن كل نقطة من الهولوغرام، تتضمن معلومة عن الكل الذي تنتمي إليه فكذلك أصبح الفرد يستقبل أو يستهلك المعلومات والأشياء الواردة عليه من الكون ككل.

هكذا وعلى سبيل المثال، يستيقظ الأوروبي كل صباح على صوت مذياعه الياباني، حيث يستمع لما وقع من أحداث في العالم: هيجانات بركانية، زلازل أرضية، انقلابات عسكرية، مؤتمرات دولية، كل هذه الأشياء تصله أثناء تناوله شايه السيلاني، الهندي أو الصيني، اللهم إذا كان يتناول قهوة موخا (اليمنية) المستوردة من إثيوبيا، أو قهوة آرابيكا المستوردة من أمريكا اللاتينية. فيرتدي سرده، وتبانه، وقميصه المصنوعين من القطن المصري أو الهندي، ثم قد يضع عليه سترته، وسرواله من الصوف الأسترالي والذي تم تصنيعه أولا في مانشيستر ثم في روبيكس توركوينك، أو قد يضع عليه قميصا جلديا من الصين، وسروالا أزرقا أمريكيا، وساعة يدوية سويسرية أو يابانية، وقد يحمل نظارتين ذات ذبل استوائي. يمكن أن نجد على طاولته الخريفية، الفراولة، والكرز الأرجنتيني أو الشيلي، يمكن أن نجد كذلك الفاصولياء الخضراء الطرية من السينغال، والأفوكا والأناناس من إفريقيا، والبطيخ من كوادالوب، توجد لديه قنينات من مختلف أنواع النبيذ: الروم المارتيني، والفودكا الروسية، التيكيلا المكسيكية، والبوربون الأمريكي. يمكن أن يسمع في منزله سامفونية ألمانية، قائدها مايسترو كوري، هذا إذا لم يكن يشاهد على شاشة الفيديو «البوهيمية»، والتي يشخص أدوارها كل من الزنجية باربرا هندريكس في دور ميمي، والإسباني بلاسيدو دومينغو في دور رودولف.

وبينما يستمتع الأوروبي داخل هذا المدار الكوكبي الرغد، ثمة عدد كبير من الأفارقة، والآسيويين، والجنوب - أمريكيين يعيشون داخل مدار كوكبي بئيس، إنهم يتحملون في حياتهم اليومية عواقب السوق العالمية، والتي تتحكم في مصير الكاكاو،

والبن، والسكر، والمواد الأولية التي تنتجها بلدانهم. لقد طردوا من قراهم بسبب سيرورات معولمة مصدرها الغرب، وعلى الخصوص بسبب التقدم الحاصل في الزراعة التصنيعية النمطية، فالفلاحون الذين كانوا يعيشون في اكتفاء ذاتي، أصبحوا عبارة عن ضاحويين يبحثون عن مرتب، إذ أصبحت حاجياتهم رهينة بالتوفر على النقود. إنهم يطمحون نحو تحقيق الرفاهية، التي جعلتهم الإشهارات والأفلام الغربية يحلمون بها. أصبحوا يستعملون الأواني الألومينيومية أو البلاستيكية، ويشربون الجعة أو الكوكاكولا. وينامون على فراش مصنوع من أوراق مستخلصة من بلاستيك مطاطي، ويحملون قمصانا مطبوعة على الطريقة الأمريكية، يرقصون على أنواع من التوليفات الموسيقية: حيث تدمج إيقاعاتهم التقليدية في إطار تنظيم موسيقي ذي طابع أمريكي. هكذا فكل إنسان، سواء كان غنيا أو فقيرا، من الجنوب أو من الشمال، من الشرق أو من الغرب، تجده في السراء والضراء، يحمل بداخله ـ دون أن يعلم ـ الكوكب بكامله. إن العولمة هي في نفس الوقت شيء بديهي، وما قبل شعوري، وحاضر بشكل كوني.

بالتأكيد إن العولمة عبارة عن نزعة موحدة، ولكن علينا أن نضيف فورا أنها كذلك نزعة تصارعية في جوهرها. إن التوحيد المعولم يتضمن في ذاته شرطه السالب، والذي يرتد عليه فيؤدي إلى البلقنة. لقد أصبح العالم أكثر فأكثر عبارة عن شيء واحد، لكنه غدا في نفس الوقت مقسما أكثر فأكثر، إنها مفارقة العصر الكوكبي، إذ هو الذي عزز وأدى إلى هذا التقسيم المعمم إلى الدول ـ الوطنية: بالفعل إن مطلب تحرر الأمة قد تقوى بفضل العودة من جديد إلى الاعتراف من الهوية السلفية، والتي جاءت كرد فعل ضد التيار الكوكبي الذي يدعو إلى التجانس الحضاري، وسيتعزز هذا المطلب أكثر بسبب الأزمة العامة المتعلقة بالمستقبل.

إن الصراعات القائمة بين الأمم، وبين الديانات، وبين العلمانية والدين، وبين الحداثة والتقليد، وبين الديموقراطية والديكتاتورية، وبين الأغنياء والفقراء، وبين الشرق والغرب، وبين الشمال والجنوب، كلها صراعات تتغذى من بعضها البعض، لذا تتداخل المصالح الاستراتيجية والاقتصادية المتصارعة للقوى العظمى وللشركات المتعددة الجنسيات التي تتطلع نحو الربح. هذه الصراعات قد تتقاطع كلها في مدار

يضم في نفس الوقت مناطق مجاورة وأخرى بعيدة عن بعضها البعض، مثلما هو الشأن بالنسبة للمنطقة الأكثر زلزالية (توترا) في العالم بأكمله، إنها تلك التي تنطلق من أرمينيا / أزربيدجان، وتمر عبر الشرق الأوسط وتصل إلى حدود السودان. تتنامى هذه الصراعات، كلما كان هناك تداخل بين الأديان، والإثنيات، وكلما كانت هناك حدود مصطنعة بين الدول، وكلما كنا أمام مختلف أنواع التنافس والجحود، مثلما هو حاصل في الشرق الأوسط.

هكذا عمل القرن العشرين على خلق نسيج كوكبي موحد، وعمل في نفس الآن على تجزيئه، إذ أصبحت أجزاؤه معزولة، وشائكة، كما دخلت في صراع مع بعضها البعض. فالدول المهيمنة على المشهد العالمي، هي إما دول جبارة متوحشة أو مزاجية، أو دول قوية أو ضعيفة. وفي نفس الوقت فالتدفق التقنو-صناعي يميل نحو القضاء فعلا على التعددية البشرية، الإثنية، والثقافية. كما أن التنمية في حد ذاتها خلقت مشاكل أكثر مما قدمت من حلول، وأدت إلى الأزمة العميقة للحضارة، والتي مست المجتمعات الغربية المزدهرة.

إن اختزال التنمية فقط في المنظور التقنو-اقتصادي، شيء لم يعد مقبولا. إننا نحتاج إلى مفهوم للتنمية أكثر غنى وذو طابع تركيبي أكثر، بحيث لا يختزلها فقط في الجانب المادي، بل يأخذ بعين الاعتبار الجوانب العقلية، والوجدانية، والأخلاقية...

لم يتجاوز القرن العشرين العصر الكوكبي الحديدي فحسب، بل توغل فيه أكثر.

2 . وَصِيَّةُ القَرْن 20

1.2 إرْثُ التَّقَدُّمِ والوَحْشِيَّة

من البديهي أن القرون 20 قد أنجز أشكالا باهرة من التقدم، في جميع مجالات المعرفة العلمية، فثمة تقدم طبي ملموس في الأدوية والجراحة، وثمة تقدم محرر للإنسان يتجلى في استخدام الآلات الصناعية والشخصية (السيارة) والمنزلية (الأدوات الكهربائية). إلا أن القرن 20 تميز كذلك بتحالف نوعين من التوحش: النوع الأول مصدره عمق الزمن الذي نعيش فيه والحابل بالحرب، والمذبحة، والمنفى،

والتعصب. والنوع الثاني يحيل على شكل من التوحش بارد مجهول، مصدره البنية الداخلية للتبرير العقلاني والذي لا يعترف سوى بما هو قابل للحساب ويتجاهل الأفراد، يتجاهل شهواتهم، وأحاسيسهم، وأرواحهم، الشيء الذي يضاعف قوى الموت والاستعباد التقنو-صناعية.

ولكي نتجاوز هذا العصر الوحشي، يجب أولا أن نعترف بإرثه، وهو إرث مزدوج: يتعلق الأمر في نفس الوقت بإرث الموت وإرث الولادة.

1.1.2. إرْثُ المَوْت

لقد بدا وكأن القرن 20 يؤكد على مصداقية تلك القاعدة الفظيعة، والتي ترى أن التطور الإنساني هو عبارة عن نمو في قوة الموت.

إن الموت الذي شهده القرن 20، لا يتعلق فقط بموت عشرات الملايين المقتولين في الحربين العالميتين، وبمعسكرات الإبادة النازية والسوفياتية، بل يتعلق الأمر أيضا بظهور نوعين جديدين من قوى الموت. النوع الأول، هو المتعلق بإمكانية الموت الكلي الذي يهدد الإنسانية جمعاء بسبب السلاح النووي. لم يزل هذا التهديد مع بداية الألفية الثالثة، بل على العكس تنامى مع انتشار ونمنمة القنبلة. ومن الآن فصاعدا، يمكن القول إن احتمال الفناء-الذاتي سيظل شيئا مرافقا لمسيرة الإنسانية.

2.1.2. المَخَاطِرُ الجَدِيدَةُ

أما بالنسبة للنوع الثاني من قوى الموت يتعلق بإمكانية حدوث موت بيئي. فمنذ السبعينات اكتشفنا أن المزابل، والإشعاعات الطبيعية، والتبخرات الناتجة عن تقدمنا التقنو-صناعي الحضري، كل ذلك يؤدي إلى تدهور محيطنا الحيوي، ويهدد الوسط الحي الذي ننتمي إليه بتسمم قاتل: إن الهيمنة الجامحة للتقنية على الطبيعة، تقود الإنسانية نحو الانتحار.

وفضلا عن ذلك، فقوى الموت التي كنا نعتقد أنها في طور التلاشي، ثارت علينا: فقد غزانا فيروس السيدا، والذي يعتبر أول فيروس يدخل التاريخ، من بين جملة من الفيروسات الأخرى المجهولة والتي هي الآن قيد الظهور. وبينما كنا نعتقد أننا

تخلصنا من البكتيريات، عادت لتطفو من جديد على السطح في أنماط جديدة تصمد أمام المضادات الحيوية. هكذا تغلغل الموت من جديد بحدة في أجسامنا، والتي كنا نعتقد أنها أصبحت معقمة إلى الأبد.
وأخيرا لقد اتسعت دائرة الموت، حينما تغلغلت داخل أرواحنا. فقوى التدمير الذاتي، المضمرة داخل كل واحد منا، ستنتعش على الخصوص كلما تضاعفت وتنامت أشكال الوحدة والقلق.

هكذا فشبح التهديد يتربص بنا بسبب السلاح النووي ـ الحراري، وكذلك بسبب تدهور المحيط الحيوي، إنه تهديد كامن في كل واحدة من معاناتنا، إنه يتلبد في أرواحنا بسبب هذا الاندفاع المميت نحو المخدرات.

2.2 مَوْتُ الحَدَاثَة

لقد ولدت الحضارة في الغرب عبر القطع مع الماضي، معتقدة أنها تتوجه نحو مستقبل حافل بالتقدم اللانهائي، وذلك بفضل التقدم الموازي في مجالات العلم، والعقل، والتاريخ، والاقتصاد، والديموقراطية. إلا أننا تعلمنا من درس هيروشيما، أن العلم سلاح ذو حدين: إذ شاهدنا كيف تراجع العقل، وكيف أن الهذيان الستاليني اتخذ قناع العقل التاريخي، لقد تبين لنا أنه لا وجود لقانون تاريخي سيقود حتما نحو مستقبل مشرق، لقد رأينا كذلك كيف أن انتصار الديموقراطية لم يتحقق بشكل نهائي في أي مكان، كما رأينا أن التنمية الصناعية يمكن أن تنجم عنها أضرار ثقافية وأنواع من التلوث القاتل، لقد رأينا أن حضارة الرفاهية يمكن أن تكون في نفس الوقت سببا في الشقاء. إذا كانت الحداثة تتحدد بما هي إيمان، غير مشروط، بالتقدم في مجالات التقنية، والعلم، وفي التنمية الاقتصادية، فبإمكاننا القول إن هذه الحداثة قد ماتت.

3.2. الأَمَلُ

إذا كان الجنس البشري حقا يملك في ذاته وسائل إبداعية لا ينضب معينها، فبإمكاننا أن نستشف بالنسبة للألفية الثالثة، إمكانية إبداع جديد يحمل القرن 20

إرهاصاته وبذوره الجنينية: يتعلق الأمر بما يمكن تسميته بالمواطنة الأرضية. على التربية، بما هي في نفس الوقت نقل لما هو موجود سلفا، وفتح الفكر من أجل استقبال ما هو جديد، أن تأخذ على عاتقها هذه المهمة الجديدة.

1.3.2. دَوْرُ التِّيَارَاتِ المُضَادَّة

أفرز القرن 20 في سنواته الأخيرة، إرثا من التيارات المضادة الساعية نحو الإصلاح. غالبا ما يشهد التاريخ تيارات مضادة، كردود أفعال ضد التيارات المهيمنة، والتي يمكن أن تتطور وتحول مجرى الأحداث. وبهذا الصدد يمكن أن نشير إلى ما يلي:

- التيار الايكولوجي المضاد، والذي لا يزداد إلا اتساعا مع تنامي أشكال التخريب، وإفرازات الكوارث التقنية الصناعية.
- التيار المضاد للنزعة الكمية، فكرد فعل ضد التكميم، وضد هذا التنميط المعمم، سيظهر ميل نحو التمسك بمبدأ النوعية (الجودة) في جميع المجالات، بدء بنوعية الحياة.
- التيار المضاد المقاوم للحياة المبتذلة والخاضعة كليا لمبدأ المنفعة، ويتجلى هذا التيار في البحث عن حياة شاعرية، منذورة للمحبة، وللاندهاش، وللشغف، وللابتهاج.
- التيار المضاد لهذه الأولوية المعطاة للاستهلاك المنمط، يتعلق الأمر هنا برد فعل يعبر عنه بطريقتين متعارضتين: طريقة البحث عن حياة ممتلئة (تتسم بالتبذير)، وطريقة البحث عن حياة بسيطة وعن اعتدال في الأهواء والشهوات.
- التيار المضاد، الذي لا زال خجولا، والذي يدعو إلى التحرر من الطغيان الكاسح للمال، إنه تيار يسعى إلى تعويض هذا الطغيان بعلاقات إنسانية وتضامنية، تعمل على الحد من سيطرة مبدأ الربح.
- التيار المضاد، الذي لا زال خجولا هو الآخر، يتعلق الأمر برد فعل ضد ارتفاع وتيرة العنف، إنه تيار يتغذى من الأخلاقيات الداعية إلى إعادة السلام إلى النفوس وإلى العقول.

يمكن أن نفكر كذلك في كل التطلعات، التي غذت الآمال الثورية الكبرى التي سادت في القرن 20 ، صحيح لقد خابت هذه الآمال، ولكن من الممكن أن تنبعث في شكل سعي جديد نحو تحقيق مبدأي التضامن والمسؤولية.

صحيح ثمة حاجات متزايدة للتشبث بالأصول، تعمل في يومنا هذا على تقسيم البشرية إلى أجزاء مشتتة، والتي تتخذ كمبرر لها إرادة الحفاظ على الهويات العرقية والوطنية، لكننا نأمل في أن تتوسع وتتعمق هذه الهويات وتندمج داخل الهوية الإنسانية لمواطني الأرض - الوطن، دون أن تنفي ذاتها.

كل هذه التيارات مرشحة كي تحتدم أكثر، وكي تتضخم خلال القرن 21، ويمكن أن تمهد لحدوث تحولات متعددة، إلا أن التحول الحقيقي لا يمكن أن يتم إلا إذا تداخلت هذه التيارات فيما بينها واندمجت في بعضها البعض، محدثة تحولا شموليا يرتد على كل واحد من هذه التيارات.

يمكن إذن أن نأمل في سياسة تخدم الكائن الإنساني، غير مفصولة عن سياسة الحضارة، والتي تعمل جاهدة من أجل تحضر الأرض باعتبارها بيتا وحديقة للإنسانية.

2.3.2. فِي قَلْبِ اللُّعْبَة المُتَنَاقِضَة لِلْمُمْكِنَات

إن أحد الشروط الأساسية من أجل تحقيق تطور إيجابي، يكمن في جعل القوى التحريرية الملازمة للعلم والتقنية، قادرة على التغلب على قوى الموت والاستعباد المتضمنة فيها. فالتطورات الحاصلة في المجال التقنو-علمي، هي سلاح ذو حدين: فقد عملت على تقليص الأرض، وجعلت كل بقاع هذا العالم تدخل في تواصل مباشر، كما وفرت الوسائل الكفيلة لضمان تغذية الكوكب ككل، ولضمان حد أدنى من الرفاه لكل ساكنته، لكنها أنتجت كذلك أسوء شروط الموت والدمار. فالناس يستعبدون الآلات، وهذه الأخيرة تستعيد الطاقة، إلا أنهم أصبحوا هم أنفسهم مستعبدين من طرف الآلات. فالملحمة العلمية الخيالية « هيبيرون » لدان سيمون، تفترض أنه في مستقبل متعدد الألفيات سيستعبد الذكاء الاصطناعي الناس، دون أن يعوا ذلك، بل سيعمل على تنحيتهم. تعرض الرواية لتغيرات فجائية مذهلة، إذ سيظهر نوع هجين من البشر ومن الذكاء الاصطناعي، يحمل روح الشاعر كيتس،

ويعلن عن ميلاد حكمة جديدة. ذلك هو المشكل الأساسي الذي طرح منذ القرن 20: فهل سنخضع لفلك التكنولوجيا أم أننا سنتعايش معها؟

إن الإمكانات التي توفرها التطورات الحاصلة في البيوتكنولوجيا هي إمكانات هائلة، لها انعكاسات سلبية وإيجابية على حد سواء. فعلم الوراثة والتسخير الذري للدماغ البشري، سيسمحان بأنواع من الضبط والتقنين، الشيء الذي لم تنجح في تحقيقه كل أنواع الشحن المذهبي والادعاءات التي أخضع لها النوع البشري، لكنها ستؤدي إلى التخلص من العديد من العيوب المعوقة، كما ستؤدي إلى ظهور الطب التكهني، وإلى جعل الإنسان قادرا على مراقبة دماغه الخاص بواسطة تفكيره، وأخيرا ستؤدي إلى حدوث تقليص في نسبة الموت الفردي وذلك بفضل تقنية زراعات الأعضاء.

يبدو أن سعة وسرعة التحولات الحالية تنذر بتغير ملموس أهم بكثير من ذاك الذي شهده العصر الحجري الأخير (العصر النيوليتي)، عندما تحولت مجتمعات صغيرة وبدائية، كانت تعيش على القنص والقطف دون أن تتوفر لا على دولة، ولا على فلاحة، ولا على حتى مدينة، إلى مجتمعات تاريخية، والتي ما فتئت تنتشر داخل الكوكب منذ ثمانية آلاف سنة.

يمكن أن نعتمد كذلك على موارد لا ينضب معينها من المحبة الإنسانية. بالتأكيد لقد عانى القرن 20 بشكل رهيب من القصور العاطفي، ومن اللامبالاة، ومن القساوة، ومن الفظاظة، لكنه أنتج كذلك ميلا مفرطا نحو أنواع عديدة من المحبة، تتجلى سواء في هذا الميل نحو الأساطير الكاذبة، أو نحو الأوهام، أو نحو الألوهية الزائفة، أو نحو هذا التقوقع داخل بعض الأشكال الصغرى من التقديس الأعمى يمكننا كذلك أن نأمل في الإمكانات الدماغية للكائن البشري، والتي لا زالت في جزء كبير منها غير مستغلة، فبإمكان الفكر الإنساني أن يطور مؤهلات لازالت مجهولة بعد بصدد الذكاء، والفهم، والإبداعية. ومادامت الإمكانات الاجتماعية مرتبطة بالإمكانات الدماغية، فلا أحد بإمكانه أن يثبت أن مجتمعاتنا استنفذت كل إمكاناتها المتعلقة بتحسين وتحويل الوضع الإنساني، وأننا وصلنا إلى نهاية التاريخ. يمكننا أن نأمل في تقدم على صعيد العلاقات الإنسانية، بين الأفراد، وبين الجماعات، وبين الإثنيات، وبين الأمم.

إن ما يتيحه التقدم من إمكانيات أنتروبولوجية، وسوسيولوجية، وثقافية، وروحية، من شأنها أن تعيد الثقة في مبدأ الأمل، ولكن بمعزل عن أي يقين «علمي»، أو عن أي وعد «تاريخي». إنها إمكانية نسبية رهينة كثيرا بالوعي التفكيري، وبالإرادات، وبالشجاعة، وبالحظ... لذلك أصبح الوعي التفكيري شيئا ملحا وأوليا.

إن هذا الذي يتضمن أسوء خطورة، هو ذاك الذي يفتح على أفضل الآمال: إنه الفكر الإنساني ذاته، لذا فقد أصبحت مسألة إصلاح الفكر مسألة حيوية.

3 . الهُوِيَّةُ الأَرْضِيَّةُ والوَعْيُ الأَرْضِي

إن وحدة الكوكب هي الحد الأدنى في المطلب العقلاني، المتعلق بعالم ضيق ومترابط الأجزاء. تحتاج هذه الوحدة إلى وعي وإحساس بالانتماء المتبادل. والذي من شأنه أن يجعلنا نرتبط بأرضنا بما هي الوطن الأول والأخير.

إذا كان مفهوم الوطن يتضمن هوية مشتركة بين الناس، نابعة من علاقة انتساب عاطفي إلى جوهر أمومي وأبوي في نفس الوقت (متضمن في الدلالة الذكورية والأنثوية لمصطلح الوطن)، وإذا كان مفهوم الوطن يحيل على مصير مشترك بين الناس، فبإمكاننا الحديث عن مفهوم الأرض ـ الوطن.

وكما بينا ذلك في الفصل الثالث، فإننا جميعا نمتلك هوية مشتركة وراثية، ودماغية، وعاطفية، من خلال اختلافاتنا الفردية، والثقافية، والاجتماعية. إننا نتاج لما طرأ من تطور في الحياة، والذي شكلت الأرض رحمه ومرضعته. وأخيرا فكل الناس منذ القرن العشرين، يعيشون نفس المشاكل الأساسية المتعلقة بالحياة وبالموت، وهم ينتمون لنفس الجماعة البشرية والتي لها نفس المصير الكوكبي.

لذلك علينا أن نتعلم كيف «نكون هنا» فوق الكوكب. ونعني بقولنا أن نكون هنا، أن نتعلم كيف نعيش، كيف نتقاسم الأشياء بيننا، وكيف نتواصل، وكيف نتوحد فيما بيننا. هذا شيء نتعلمه فقط في، ومن خلال، ثقافتنا الخصوصية، بينما يتعين علينا من الآن فصاعدا أن نتعلم كيف نعيش، وكيف نتقاسم الأشياء، وكيف نتواصل، وكيف نتوحد فيما بيننا، باعتبارنا أناسا ينتمون لكوكب الأرض. لا يتوجب علينا فقط أن ننتمي لثقافة ما، بل علينا أن نشعر بوجودنا ككائنات أرضية،

علينا أن نطمح ليس نحو السيطرة على الأرض، بل نحو توفير سبل العيش فيها، ونحو تحسينها، ونحو فهمها. وبالتالي علينا أن نرسخ بداخلنا ما يلي:

- الوعي الأنتروبولوجي، والذي يعترف بوحدتنا في إطار تعدديتنا.
- الوعي الإيكولوجي، أي الوعي بأننا نعيش مع كل الكائنات الفانية داخل نفس المحيط الحيوي. إن الاعتراف برباط التعايش مع المحيط الحيوي، سيجعلنا نتخلى عن ذلك الحلم البروميثيوسي الطامح نحو السيطرة على الكون، وعكس ذلك علينا أن نعمل أكثر ما يمكن على نمو الطموح نحو التعايش داخل كوكب الأرض.
- الوعي المدني الأرضي، ونقصد بذلك الوعي بالمسؤولية والتضامن مع أطفال الأرض.
- الوعي الحواري، والذي يكتسب من خلال ممارسة مركبة للتفكير، والتي من شأنها أن تسمح لنا في نفس الوقت بنقد بعضنا البعض، وبنقد أنفسنا، وكذا بتفهم بعضنا البعض.

يجب علينا أن لا نقوم أبدا بوضع تعارض بين الكون ككل وبين مختلف الأوطان، بل علينا أن نربط بشكل تراكزي بين أوطاننا العائلية، والمحلية، والأممية، والأوروبية، والعمل على دمجها داخل هذا الكون الملموس ألا وهو الوطن الأرضي. لا ينبغي أن نضع مستقبلا مشعا في تعارض مع ماض مليء بالإكراهات والشعوذات. كل الثقافات لها فضائلها، وتجاربها، وحكمها، كما لها في نفس الوقت عيوبها وجهالاتها. إن الاغتراف من الماضي هو الذي يجعل جماعة بشرية تمتلك القدرة على مواجهة حاضرها، وعلى التحضير لمستقبلها. فالبحث عن مستقبل أفضل يجب أن يكون شيئا مكملا، لا متعارضا، مع الاغتراف من الماضي. على كل كائن إنساني، وعلى كل جماعة أن تجعل حياتها ترتوي من هذا التنقل المستديم بين ماضيها التي تمتح منه هويتها، عبر تشبثها بأصولها، وبين حاضرها الذي تؤكد فيه على حاجياتها، وبين مستقبل تسقط عليه تطلعاتها ومجهوداتها.

وفي هذا الإطار يمكن للدول أن تلعب دورا حاسما، ولكن شريطة أن تقبل - وهذا شيء في صالحها - بالتخلي عن سيادتها المطلقة على كل المشاكل الكبرى المتعلقة بالمنفعة العامة، وعلى الخصوص مشاكل الحياة أوالموت، والتي تتجاوز قدراتها المعزولة،

وعلى أية حال فقد ولى العصر الخصب للدول ـ الأوطان، المتميزة بسلطة مطلقة، وهذا لا يعني أنه يجب علينا أن نفككها، بل علينا احترامها عبر إدماجها في مجموعات، وأن نجعلها تحترم المجموعة التي تنتمي إليها.

إن العالم المتحد الذي نطمح إليه، يجب أن يكون متعدد المراكز، وغير متمركز، ليس فقط سياسيا ولكن ثقافيا أيضا. فالغرب الذي بدأ يتحول إلى قرية صغيرة، يحس بحاجته للشرق، بينما نجد أن الشرق الذي يتغرب، يحرص أن يظل وفيا لذاته كشرق. صحيح لقد طور الشمال الحساب والتقنية لكنه خسر نوعية الحياة، بينما نجد أن الجنوب متخلف تقنيا لكنه حريص على مراعاة الحياة، في أشكالها المتعددة. ثمة نوع من الحوارية يجب من الآن فصاعدا، أن تعمل على خلق تكامل بين الشرق والغرب، بين الشمال والجنوب.

علينا أن نعوض التفكك الحاصل بتثبيت الترابط، علينا أن ندعو العقول إلى «حكمة التعايش»، إنها حكمة العيش مع بعضنا البعض.

علينا أن نطور فينا الميل نحو الوحدة، والتمازج، والتنوع، مقابل هذا النزوع نحو التجانس والانغلاق. فالتمازج ليس فقط خلق لأشكال جديدة من التنوع انطلاقا مما يتيحه اللقاء (مع الغير)، بل إنه يصبح داخل السيرورة الكوكبية نتاجا للترابط والوحدة ومنتجا لهما. إنه يضفي بعدا تركيبيا على الهوية الهجنية (الثقافية والعرقية)، بالتأكيد كل واحد بإمكانه بل يجب عليه في العصر الكوكبي، أن يعمل على تنمية هويته المتعددة، والتي من شأنها أن تدمج بداخلها كل من الهوية العائلية، والهوية المحلية، والهوية الإثنية، والهوية الوطنية، والهوية الدينية أو الفلسفية، والهوية القارية، والهوية الأرضية. لكن الشخص الهجين، بإمكانه أن يخلق هوية متعددة انطلاقا من قطب ثنائي عائلي، إثني، وطني، أو حتى قاري، وهكذا فهو يكون بداخله هوية مركبة وإنسانية تماما.

هكذا فالوازع الأنتروبولوجي المزدوج يفرض ذاته: فمن جهة يتعين الحفاظ على الوحدة الإنسانية، ومن جهة ثانية يتعين الحفاظ على التنوع البشري. يتعلق الأمر بتطوير هوياتنا، سواء المتعددة منها أو ذات المركز المشترك: أي تلك المتعلقة بإثنيتنا، أو تلك المتعلقة بوطننا، أو تلك المتعلقة بالطابع الاجتماعي لانتمائنا الحضاري، أو تلك الخاصة بمواطني الأرض.

إننا ملتزمون على مستوى الإنسانية الكوكبية، كي نتمم هذا العمل الجوهري للحياة والمتمثل في مقاومة الموت. إن التحضر والتضامن في الأرض، وتحويل النوع البشري إلى إنسانية حقة، لهو الهدف الأساسي والإجمالي لكل تربية متطلعة لا فقط نحو التقدم، ولكن نحو الحفاظ على بقاء الإنسانية. في هذا العصر الكوكبي، يجب على الوعي بإنسانيتنا أن يقودنا نحو التضامن والعطف المتبادل لكل واحد اتجاه الآخر، وللكل اتجاه الكل. على التربية أن تتضمن أخلاقا متعلقة بالفهم الكوكبي[2].

2) انظر الفصل السادس.

الفصل الخامس

مُواجَهَةُ اللاَّيَقِينِيَّاتِ

«إن ما يميز الآلهة هو كونهم يخلقون لنا المفاجآت: فالمنتظر لا يتحقق تماما، ودور الإله هو أن يفتح الطريق أمام اللامنتظر».

أوريبيد

إننا لم نستوعب بعد رسالة أوريبيد: توقع اللامنتظر، رغم أن نهاية القرن العشرين شكلت فرصة مناسبة من أجل فهم اللايقين الحتمي للتاريخ البشري.

لقد ساد الاعتقاد في القرون السابقة بمستقبل، سواء بالمعنى التكراري (ذاك الذي يعيد إحياء ماض سابق)، أو بالمعنى التقدمي (ذاك الذي يضيف الجديد على ما سبق). لكن ميزة القرن العشرين تكمن في كونه اكتشف ما يمكن تسميته بفقدان المستقبل، أو بعبارة أصح استحالة التنبؤ بالمستقبل. إن الوعي بهذه المسألة، يجب أن يرافقه وعي آخر ارتدادي وتعالقي: إنه الوعي بكون التاريخ البشري كان وسيبقى عبارة عن مغامرة مجهولة. إن الإنجاز الأكبر الذي يمكن أن يقوم به العقل الإنساني، هو قدرته على التخلي عن وهم التنبؤ بالمصير الإنساني. فالمستقبل يبقى شيئا مفتوحا وغير قابل للتكهن. بالتأكيد توجد محددات اقتصادية، وسوسيولوجية، ومحددات أخرى تؤثر على مجرى التاريخ، لكن ليس لها علاقة ثابتة ويقينية مع الطوارئ والمصادفات المتعددة، والتي تعمل على تشعب وتحويل مجرى التاريخ.

كانت المجتمعات التقليدية تعيش على إيقاع يقين، بوجود زمن دوري يتعين علينا أن نضمن حسن سيره، من خلال تقديم تضحيات بشرية أحيانا. أما الحضارة الحديثة، فقد عاشت على إيقاع يقينية التقدم التاريخي. إن الوعي بلايقينية التاريخ

يتجلى في يومنا هذا من خلال انهيار أسطورة التقدم. بالتأكيد إن التقدم شيء ممكن، لكنه غير يقيني. وعلاوة على لايقينية المستقبل، تنضاف كل أنواع اللايقين الناجمة عن السرعة الفائقة، وعن تسارع السيرورات المعقدة والعشوائية التي شهدها عصرنا الكوكبي، والتي ليس في مقدور الفكر الإنساني، ولا في مقدور حتى أقوى حاسوب، ولا أي مارد ـ كما قال بذلك لابلاس ـ أن يتحكم فيها.

1 . اللاَّيَقِينُ التَّارِيخِي

من كان يعتقد في ربيع 1914، أن ثمة اعتداء في سراييغو سيفجر حربا عالمية ستدوم أربع سنوات، وستحصد ملايين الأرواح؟

من كان يعتقد في 1916، أن الجيش الروسي سيتفكك وأن حزبا ماركسيا صغيرا وهامشيا، سيحدث خلافا لمذهبه ثورة شيوعية في أكتوبر 1917؟

من كان يعتقد في 1918، أن معاهدة السلام الموقع عليها، تحمل في أحشائها بذورحرب عالمية ثانية ستتفجر سنة 1939؟

من كان يعتقد في خضم الازدهار السائد سنة 1927، أن انهيارا ماليا في بورصة وول ستريت سيسبب سنة 1929 في أزمة اقتصادية كوكبية؟

من كان يعتقد في 1930، أن هيتلر سيصل إلى سلطة الحكم بطريقة مشروعة سنة 1939؟

من كان يعتقد في 1940 / 1941، باستثناء بعض المتوهمين، أن الهيمنة الرهيبة للنازية على أوروبا، والتقدم الصاعق للجيش الألماني في الاتحاد السوفياتي، والممتد إلى تخوم لينينغراد وموسكو، سيليه بعد ثلاث سنوات، أي في 1942، انقلاب كلي لما كانت عليه الأوضاع؟

من كان يعتقد في 1943، وفي عز التحالف بين السوفيات والغربيين، أن تطرأ حرب باردة بين هؤلاء المتحالفين أنفسهم؟

من كان يعتقد في 1980، باستثناء بعض الملهمين، أن الامبراطورية السوفياتية ستنهار سنة 1989؟

من كان يتخيل في 1989، وقوع حرب الخليج، ووقوع الحرب التي ستفكك يوغوسلافيا؟

من كان يستطيع أن يتصور سنة 2000 ، أن ضابطا في ك.ج.ب سيصبح رئيسا لروسيا؟

إن ما صح قوله عن الماضي، يمكن أن يصح كذلك عن المستقبل، وكما قال باطوكا: «إن المستقبل أصبح من الآن فصاعدا مؤشكلا، وسيبقى كذلك إلى الأبد». لقد أصبح للمستقبل اسما آخر ألا وهو اللايقين

2. التَّارِيخُ البَنَّاءُ/ الهَدَّامُ

لا يمكن أن نتنبأ ببزوغ ما هو جديد، وإلا لن يكون شيئا جديدا. كما أنه لا يمكننا أن نتعرف مسبقا على ابتكار ما، وإلا لما سمي ابتكارا. إن التاريخ لا يتقدم بشكل انسيابي، مثل تدفق نهر، بل يسير على شكل انحرافات مصدرها سواء أنواع التجديد والابتكار الداخلية، أو الأحداث أو الطوارئ الخارجية. يبدأ التحول الداخلي انطلاقا أولا من ابتكارات محلية وصغيرة جدا، والتي تتم في وسط قاصر في البداية على بعض الأفراد، فتبدو وكأنها نشاز بالنسبة للحالة السوية. وإذا لم يتم سحق هذا الانحراف، فإنه إذا ما توفرت له الشروط المناسبة، والمتمثلة في أزمات، بإمكانه أن يشل التنظيم الصارم الذي كان يكبحه أو يقمعه، الشيء الذي يسمح له بأن يتكاثر بشكل كاسح، فيتطور ويتفشى ويصبح عبارة عن نزعة تتقوى أكثر فأكثر منتجة في نهاية المطاف الحالة السوية الجديدة. هذا ما حدث بالنسبة لجميع الاختراعات التقنية، بدء من مربط حافلات القطار، والبوصلة، والمطبعة، والآلة البخارية، والسينما، وصولا إلى الحاسوب. وهذا ما حدث أيضا بالنسبة للمدن ـ الدول في عصر النهضة، وهذا ما حدث كذلك بالنسبة للديانات الكونية الكبرى، والتي انطلقت من نبوءة فردية مع سيدارتا، وموسى، والمسيح، ومحمد، ولوثر، ونفس الشيء حدث بالنسبة للايديولوجيات الكبرى، والتي أصبحت إيديولوجيات كونية، تولدت في أذهان بعض العقول المهمشة.

تعرف النزعات الاستبدادية والكليانية، أن الأفراد المنحرفين يشكلون تهديدا محتملا بالنسبة لها، لذا تعمل على إقصائهم وعلى القضاء على مواطن الانحراف. وعلى الرغم من ذلك تنتهي النزعات الاستبدادية إلى أن تلين، بل قد يبزغ الانحراف

حتى على صعيد الدولة، وغالبا ما يتم ذلك بطريقة غير منتظرة في ذهن حاكم جديد (اسبانيا)، أو كاتب عام جديد (الاتحاد السوفياتي) .

كل تطور هو ثمرة انحراف، والذي ما أن يتسع حتى يحول النسق ذاته الذي ولد فيه : إنه يخل بالنظام السائد ويعيد تنظيمه بشكل جديد . كل التحولات الكبرى هي عبارة عن تشكلات أولية مولدة لأشكال جديدة، والتي بإمكانها أن تشكل أنواعا حقيقية من المسخ. وعلى أية حال، ليس هناك تطور يخرج عن دائرة الإخلال بالنظام / وإعادة النظام أثناء سيرورته الخاصة بالتحول أو المسخ.

ليس هنالك فقط أنواع من التجديد والابتكار، بل هناك أيضا أنواع من التدمير. وهذه الأخيرة قد يكون مصدرها تطورات جديدة : هكذا فالتطورات التي شهدتها التقنية، والصناعة، والرأسمالية، كلها عملت على تدمير الحضارات التقليدية. إن كل أنواع التدمير الكثيفة والمفاجئة، تأتي من الخارج، عن طريق الغزو والاستئصال اللذين يعملان على القضاء على إمبراطوريات ومدن العصر القديم. ففي القرن 16 شكل الغزو الإسباني كارثة عمت إمبراطوريات وحضارات الأنكا والأزتيك. كما أن القرن 20 شهد انهيار الامبراطورية العثمانية، والامبراطورية الأوسترو- هنغارية، وكذا شهد الانهيار الداخلي للامبراطورية السوفياتية. وعلاوة على الضياع الأبدي للكثير من المكتسبات، من جراء ما حصل من نكبات تاريخية، فقد تم هدم العديد من المعارف، ومن الأعمال الفكرية، ومن التحف. داخل كل جيل يحدث نوع من الضياع الهائل بالنسبة للتجربة الإنسانية التي خلفها الجيل السابق. في الواقع يشهد التاريخ على ضياع العديد من المكتسبات. وأخيرا هناك العديد من الأفكار الجيدة، لم تأخذ بعين الاعتبار، بل عكس ذلك تم رفضها من طرف الضوابط، والطابوات والموانع.

يكشف لنا التاريخ إذن على العديد من الابتكارات المدهشة، مثلما وقع في أثينا منذ القرن 5 قبل الميلاد، حيث ظهرت في نفس الوقت الديموقراطية، والفلسفة، كما ظهرت أنواع أخرى من التدمير مست لا فقط المجتمعات بل حتى الحضارات.

هكذا إذن فالتاريخ لا يسير وفق تطور خطي. إنه يعرف اضطرابات، تفرعات، وانحرافات، كما يشهد فترات قارة، وحالات من الركود، ومراحل كمون، تليها بعد ذلك احتدامات، كما هو الحال بالنسبة للمسيحية، والتي ظلت في حالة كمون لمدة قرنين قبل أن تزحف عليها الحضارة الرومانية، لنستحضر هنا أيضا سيرورات جانحة

وسريعة بشكل مذهل، مثلما كان عليه الأمر بالنسبة لانتشار الإسلام. يتعلق الأمر بتشابك بين عدة صيرورات متنافرة، تتظافر مع كل أنواع المصادفات واللايقينيات، فتحبل بتطورات وإرهاصات، بأنماط من التقدم ومن التراجع، وبالانشقاقات كذلك. وعندما يتكون تاريخ كوكبي، فإنه يتطور في جو من البلبلة، إلى درجة أنه حمل معه في القرن 20 حربين عالميتين وهيجانات كليانية. إنه يخضع في نفس الوقت لحتميات ومصادفات، حيث يبزغ بشكل غير منقطع نوع من « الصخب والهيجان ». للتاريخ دائما وجهين متناقضين: الحضارة والوحشية، البناء والهدم، البذور الجنينية للحياة وقوى التقتيل.

3 . عَالَمُ لايَقِيني

إن مغامرة اللايقين التي انخرطت فيها الإنسانية، والتي اقتفت في سيرها نهج مغامرة الكوسموس اللايقينية، هذا الأخير الذي تولد عن حادث غير مفكر فيه، لازالت مستمرة في شكل صيرورة من أنواع البناء والهدم.

لقد تعلمنا في نهاية القرن 20، أنه كلما كنا أمام كون خاضع لنظام صارم، إلا وعلينا أن نستبدله بكون آخر نجعل منه لعبة ورهانا لهذه الحوارية (بما هي في نفس الوقت علاقة صراعية، وتنافسية، وتكاملية) التي تجمع بين النظام، والاختلال، والتنظيم.

من المرجح أن الأرض التي تكونت في الأصل من فضلات كونية أفرزها الانفجار الشمسي، ستعمل على تنظيم ذاتها في إطار حوارية شملت كلا من:

النظام ←— الاختلال ←— التنظيم

إذ خضعت الأرض لا فقط لهيجانات وهزات أرضية، بل أيضا لصدمة عنيفة للنيازك الجوية والتي ستؤدي إحداها إلى اقتلاع القمر [1].

1) انظر الفصل 3: « تعلم الشرط الإنساني »، 3-1 « الشرط الأرضي ».

4 . مُوَاجَهَةُ اللاَّيَقِينِيَّات

ثمة وعي جديد بدأ في البزوغ: فالعالم الإنساني تواجهه اللايقينيات من كل الجهات، كما أنه خاض غمار مغامرة جديدة. يجب تعلم مواجهة اللايقينيات، لهذا الغرض على التربية أن تعترف باللايقينيات المتعلقة بالمعرفة (انظر الفصل 2)، لأن هناك ما يلي:

+ مبدأ اللايقين الدماغي ـ الذهني، والذي ينجم عن سيرورة ترجمة / وإعادة بناء كل معرفة على حدى.

+ مبدأ اللايقين المنطقي، كما عبر عن ذلك باسكال بكل وضوح، عندما قال «ليس التناقض علامة على الخطأ وليس اللاتناقض علامة على الصواب».

+ مبدأ اللايقين العقلي، لأن العقلانية إذا لم تحافظ على يقظة النقد الذاتي، فإنها ستفرغ في نوع من التبرير العقلاني.

+ مبدأ اللايقين السيكولوجي: إذ يستحيل أن نكون واعين كليا بما يحدث داخل آلية فكرنا، والذي يظل محتفظا دائما بشيء أساسي لاواعي. من هنا صعوبة اللجوء إلى محك النقد الذاتي، ذلك أن صدقنا غير كاف لضمان اليقين، كما أنه يصطدم بالضرورة بحدود معرفتنا الذاتية.

1.4. لاَيَقِينِيَّةُ المَعْرِفَةُ

المعرفة هي عبارة إذن عن مغامرة لايقينية، تتضمن في ذاتها وبشكل دائم إمكانية التعرض للوهم والخطأ.

والحالة هذه، فداخل اليقينيات المذهبية، والدوغمائية، والمتشددة، نعثر على أسوء الأوهام. وعكس ذلك فالوعي بالطابع اللايقيني للفعل المعرفي، يشكل فرصة لبلوغ معرفة ملائمة، والتي تحتاج إلى فحوصات، وتحققات، وتجميع المؤشرات. مثلما هو الشأن في الكلمات المتقاطعة، فنحن نصل إلى الكلمة الصحيحة، اعتمادا في نفس الوقت على تطابقها مع تعريفها، وملاءمتها مع الكلمات الأخرى التي تتضمن حروفا مشتركة فيما بينها، ثم إن التوافق العام بين الكلمات يسمح بالتحقق من المجموع، والذي يثبت شرعية مختلف الكلمات المكتوبة. لكن الحياة، على خلاف

الكلمات المتقاطعة، تتضمن خانات غير معرفة، وخانات أخرى لها تعريفات مغلوطة، كما تفتقر على الخصوص لإطار عام مغلق. لا يمكننا الوصول إلى حقائق يقينية، إلا إذا كان بإمكاننا عزل إطار ما ومعالجة عناصره القابلة للتصنيف، مثلما هو الشأن في جدول ماندليف لنكرر القول مرة أخرى، إن المعرفة هي إبحار في محيط من اللايقينيات، مرورا بأرخبيلات من اليقينيات.

2.4. لاَيَقينيَّةُ الوَاقِع

إن قراءة الواقع ليست مسألة بديهية، هذا علاوة على ما رأيناه سابقا من أن الأفكار والنظريات لا تعكس الواقع، بل تترجمه بطريقة غالبا ماتكون غير كافية ومغلوطة. إن واقعنا ليس شيئا آخر سوى فكرتنا عن الواقع.

كما أنه من الأهمية بمكان أن لا نكون واقعيين بالمعنى المبتذل (بمعنى التكيف مع ما هو مباشر)، وأن لا نكون غير واقعيين بالمعنى المبتذل (بمعنى التملص من إكراهات الواقع)، يتعين علينا أن نكون واقعيين بالمعنى المركب: بحيث نفهم لايقينية الواقع، وندرك أن ثمة شيء يمكن معرفته لازال بعد غير مرئي في الواقع.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنه يجب علينا أن نتعلم كيف نؤول الواقع، قبل أن نعترف بوجود شيء إسمه الواقعية.

ها نحن نصل مرة أخرى إلى وجود لايقينيات بصدد الواقع، والتي تضع موضع تساؤل يقينية النزعات الواقعية، كما تكشف أحيانا عن واقعية بعض النزعات التي تبدو في ظاهرها كنزعات غير واقعية.

3.4. اللاَّيَقينيَّات وايكُولُوجْيَا الفعْلِ

نشعر أحيانا بأن الفعل يختزل الأمور، لأننا عندما نوضع بين خيارين نختار ونحسم. حقا إن الفعل تعبير عن قرار، وعن اختيار، لكنه أيضا عبارة عن مراهنة. وفي صلب مفهوم المراهنة، يحضر الوعي بالمخاطرة وباللايقين.

هنا يكمن دور إيكولوجيا الفعل، فما إن يقوم فرد ما بفعل، كيف ما كان، حتى يصبح هذا الفعل منفلتا عن مقاصده. يدخل هذا الفعل في عالم من التفاعلات،

وحده المحيط يتحكم فيه في نهاية المطاف، بحيث يمكن أن يصبح متناقضا مع مقصده الأصلي. وغالبا ما ترتد عاقبة الفعل علينا. وهذا يستلزم منا مراقبة الفعل، ومحاولة تصحيحه - إذا لم يكن قد فات الأوان - بل العمل على نسفه في بعض الأحيان، مثلما يفعل المسؤولون عن النازا، إذ قد يلجؤون إلى تفجير صاروخ إذا حاد عن مساره.

إن إيكولوجيا الفعل تعني إجمالا الأخذ بعين الاعتبار تعقد الفعل، وما يحيل إليه من احتمالات، ومصادفات، ومبادرات، وقرارات، ومفاجآت، كما يتطلب الوعي بالانحرافات والتحولات[2].

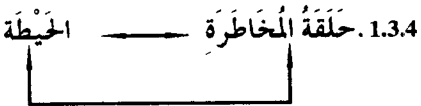
إن أحد المكتسبات الكبرى في القرن 20، يتمثل في وضع نظريات تضع حدودا للمعرفة، سواء في البرهنة (نظرية كوديل، ونظرية شايتان)، أو في مجال الفعل. وبهذا الصدد نشير إلى نظرية آروو، والتي تؤكد على استحالة اختزال مصلحة جماعية، في مجرد تجميع للمصالح الفردية، وكأننا نريد تعريف سعادة الجماعة من خلال فقط تجميع لسعادات الأفراد. وبشكل أعم يمكن القول، من المستحيل وضع لوغاريتم كامل خاص بحل المشاكل البشرية: فالبحث عن الكمال يتجاوز كل قدرة متاحة في البحث، ويفضي في النهاية إلى عدم بلوغ هذا الكمال، بل إلى التشاؤم بصدد البحث عن ما هو أفضل. لقد وصلنا إلى لايقين جديد بصدد العلاقة بين البحث عن الشيء الأكثر خيرا وذاك الأقل ضررا.

وفضلا عن ذلك فنظرية الألعاب لفون نيومان، تحيلنا على أنه إذا ما تجاوزنا هذه المبارزة القائمة بين فاعلين عقلانيين، لا يمكننا أن نقرر بطريقة يقينية ما هي الاستراتيجية الأفضل. والحالة هذه فألعاب الحياة نادرا ما تتضمن فاعلين، بل نادرا أكثر ما يكون هناك فاعلون عقلانيون.

وأخيرا تتضمن إيكولوجيا الفعل، أربعة مبادئ متعلقة باللايقين:

2) انظر موران **مدخل نحو الفكر المركب**، منشورات (e. s. f) باريس 1990.

1.3.4. حَلَقَةُ المُخَاطَرَة ـــــ الحَيْطَة



إن مبدأ اللايقين يمتح من الضرورة المزدوجة للمخاطرة وللحيطة. فبصدد كل فعل نقوم به في وسط لايقيني، نجد ثمة تناقضا بين مبدأ المخاطرة ومبدأ الحيطة، مع العلم أن كل واحد منهما ضروري. يتعلق الأمر بإمكانية الجمع بينهما على الرغم من تناقضهما، وبهذا الصدد يقول بيريكليس: «لقد برهنا نحن الآثينيون في نفس الوقت،على جرأة عالية، وعلى عدم القيام كذلك بأي شيء إلا بعد تأمل عميق. بينما تشكل الجرأة لدى الآخرين تعبيرا عن الجهل، كما يؤدي التأمل لدى الآخرين إلى الإحجام عن اتخاذ القرار.» (ذكرها ثيوسيديد في «حرب البوليبينيز»).

2.3.4. حَلَقَةُ الغَايَاتِ ـــــ الوَسَائِلِ

يتعلق الأمر هنا بلايقينية الغاية والوسائل. فبما أن الوسائل والغايات تؤثر على بعضها البعض، بشكل تفاعلي وارتدادي، فإننا نكاد نجزم أن لا مناص من كون استخدام وسائل دنيئة من أجل تحقيق غايات نبيلة يفسد هذه الأخيرة، بل قد يفضي الأمر إلى أن تحل الوسائل محل الغايات. إن الوسائل المسخرة لتحقيق غايات تحريرية، يمكن أن تصيب عدواها لا فقط الغايات، بل قد تصبح الوسائل غايات في حد ذاتها. هذا ما حدث بالنسبة لتشيكا، فبعد الانحراف الذي أصاب المشروع الاشتراكي، أصبحت تشيكا غاية في ذاتها، فعبر ألقابها المتتالية: الغيبيو، ون.ك.ف.د، وك.ج.ب، تحولت إلى قوة بوليسية كبيرة تعمل على استدامة ذاتها. غير أننا ومن أجل قضية عادلة، قد نلجأ إلى الوسائل التالية: الحيلة، والكذب، والقوة، إنها وسائل يمكن أن تحافظ على الوفاء للقضية دون أن يصل عدواها إليها، شريطة أن يكون اللجوء إلى هذه الوسائل مسألة استثنائية ومؤقتة. وعلى العكس من ذلك، فمن المحتمل أن تقود أفعال منحرفة، من خلال ردود الأفعال التي تحدثها بالتحديد، إلى نتائج سارة. وإذن ليس هناك يقين مطلق بكون سلامة الوسائل، يقود بالضرورة نحو الغايات المأمولة، كما أن استعمال وسائل دنيئة لا تنجم عنها بالضرورة نتائج مشؤومة.

3.3.4. حَلَقَةُ الفعْلِ ـــــــ السِّيَاقِ

كل فعل ينفلت من إرادة صاحبه، ما إن يندرج في إطار لعبة التفاعلات الارتدادية، المتعلقة بالوسط الذي يقع فيه هذا الفعل. ذلك هو المبدأ الخاص لإيكولوجيا الفعل، فالفعل يكون معرضا لا فقط للفشل، ولكن للتحول وللانحراف عن معناه الأصلي، بل يمكن أن ترتد عاقبته ضد الذين بادروا للقيام به. هكذا فحدوث ثورة أكتوبر 1917، لم ينجم عنها ديكتاتورية البروليتاريا، بل أدت إلى ممارسة الديكتاتورية عليها. بل أكثر من ذلك، فالطريقان الإثنان نحو الاشتراكية: الطريق الإصلاحي الاشتراكي - الديموقراطي، والطريق الثوري - اللينيني، كلاهما انتهى إلى شيء آخر مخالف لغاياته. كما أن وضع الملك خوان كارلوس على سدة الحكم في إسبانيا، كان يهدف حسب مقصد الجينيرال فرانكو إلى تعضيد دعائم نظامه الاستبدادي، إلا أنه عكس ذلك فقد ساهم بشكل قوي في توجيه إسبانيا نحو الديموقراطية.

هكذا يمكن أن يكون للفعل ثلاثة أنواع من النتائج غير المتوقعة، كما أحصاها هيرشمان وهي كالتالي:

+ التأثير السلبي (فالتأثير السيء وغير المنتظر، أكثر أهمية من التأثير المؤات والمأمول).

+ لا جدوائية التجديد (فكلما اعتقدنا أن هنالك تغيير، إلا وكنا أمام نفس الشيء).

+ وضع المكتسبات السابقة موضع خطر (كنا نطمح نحو مجتمع أفضل، لكننا لم نعمل سوى على إلغاء الحريات والأمن). إن هذه التأثيرات: السلبية منها، وغير المجدية، والضارة، المتعلقة بثورة 1917، كلها تجلت في التجربة السوفياتية.

5. اسْتِحَالَةُ التَّنَبُّؤُ عَلَى المَدَى الطَّوِيلِ

بالتأكيد يمكننا أن نتصور أو نتوقع التأثيرات المرتقبة لفعل ما على المدى القصير، لكن يستحيل علينا التنبؤ بالتأثيرات المرتقبة على المدى الطويل. هكذا فالأحداث المتتالية منذ 1789، كانت كلها أشياء غير منتظرة. فقد ظهر في فرنسا ما

سمي بمرحلة الرعب، ثم تلتها مرحلة الثيرميدور، وبعد ذلك ظهرت الامبراطورية، ثم وصل البوربونيون إلى سدة الحكم، وعلى صعيد أوسع، فالنتائج الأوروبية والعالمية للثورة الفرنسية، وكذا أحداث أكتوبر 1917، كانت كلها غير متوقعة. كما أن نتائج أحداث أكتوبر 1917 لم تكن متوقعة، منذ أن تشكلت الامبراطورية الكليانية وإلى حدود انهيارها.

هكذا فليس هناك فعل بإمكانه أن يضمن إحداث تأثيرات متطابقة مع الغاية التي يتوخاها. لكن بالمقابل فإيكولوجيا الفعل تدعونا لا إلى الإحجام عن القيام بأي فعل، بل تدعونا إلى القيام بمراهنة تعترف بمخاطر الفعل، كما تدعونا إلى نهج استراتيجية تسمح بتعديل إن لم نقل بإلغاء الفعل إذا اقتضى الأمر ذلك.

1.5. المُرَاهَنَةُ والاسْتِرَاتيجيَّةُ

هناك بالفعل زادين نحتاج إليهما في رحلتنا في مواجهة لايقين الفعل: الأول هو الوعي الكامل بالمراهنة التي يتضمنها القرار الذي نتخذه، والثاني هو اعتماد استراتيجية معينة.

فما إن نضع اختيارا مفكرا فيه بصدد قرار ما، حتى يصبح الوعي الكامل باللايقين هو الوعي الكامل بالمراهنة. لقد اعترف باسكال بأن إيمانه مبني على نوع من المراهنة. وعلى مفهوم المراهنة أن يعمم على كل أنواع الإيمان: الإيمان بعالم أفضل، والإيمان بالإيخاء أو بالعدل، كما ينبغي أن يعمم على كل قرار أخلاقي.

علينا أن نعطي الأولوية للاستراتيجية على البرنامج. هذا الأخير الذي من المفروض أن يضع متوالية من الأفعال، التي يجب القيام بها داخل محيط قار وبدون أي تغيير، لكن ما إن يكون هناك تعديل في الشروط الخارجية حتى يتوقف تنفيذ البرنامج ككل. عكس ذلك فالاستراتيجية تعمل على تهييء سيناريو للفعل، آخذة بعين الاعتبار يقينيات ولايقينيات الوضعية، وكذا الاحتمالات واللااحتمالات الواردة. يمكن أن يتعدل السيناريو - بل يجب ذلك - حسب المعلومات المحصل عليها، وحسب المصادفات، وحسب الطوارئ أو حسن الطالع، والتي قد تعترض سبيلنا. يمكننا أن نستخدم، داخل استراتيجيتنا، متواليات مبرمجة تكون قصيرة المدى، ولكن في محيط

متسم بعدم الثبات وباللايقين تصبح الاستراتيجية شيئا يفرض نفسه. تتطلب منا الاستراتيجية أحيانا التحلي بالحيطة، كما قد تتطلب منا أحيانا أخرى التحلي بالجرأة، وقد تتطلب منا التحلي بهما معا إذا أمكن ذلك. في الغالب يمكن ويجب على الاستراتيجية أن تقوم بنوع من التوافقات. لكن ما هي حدود هذه التوافقات؟ ليس لدينا جوابا عاما على هذا السؤال، إذ هنا أيضا توجد ثمة خطورة، متعلقة سواء بالتعنت الذي قد يقودنا إلى الفشل، أو بالتعنت الذي يقودنا نحو الاستسلام. فقط في الاستراتيجية تطرح دائما وبشكل متفرد هذه الحوارية المفتوحة بين الوسائل والغايات، وذلك حسب السياق وحسب ما يقتضيه التطور الخاص لهذه الاستراتيجية.

وأخيرا يجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار الصعوبات التي تطرحها الاستراتيجية المتبعة لتحقيق غاية مركبة، كما يحيل على ذلك شعار «الحرية المساواة الإيخاء». إن هذه المصطلحات هي في نفس الوقت مصطلحات متكاملة ومتناقضة، فالحرية تميل نحو القضاء على المساواة، وهذه الأخيرة إذا كانت مفروضة فإنها تميل إلى القضاء على الحرية، وأخيرا فالإيخاء لا يمكن أن نسنه قانونيا، ولا يمكن أن نفرضه، ولكن يمكننا أن نحث الناس عليه فقط. على الاستراتيجية، تبعا لما تمليه الشروط التاريخية، أن تعطي الأولوية سواء للحرية، أو للمساواة، أو للإيخاء، ولكن دون أن تجعل الواحد منها في تعارض فعلي مع المصطلحين الآخرين.

وبناء عليه، فلمواجهة لايقينية الفعل، يجب أن نقوم باختيار قرار ما مفكر فيه جيدا، ويجب أن نعي بالمراهنة، كما يجب أن نضع استراتيجية تأخذ بعين الاعتبار مختلف التعقيدات الملازمة للغايات التي نتوخاها، والتي من الممكن أن تتعدل أثناء القيام بالفعل تبعا للمصادفات، وللمعلومات، وللتغيرات التي يشهدها السياق والتي من الممكن أن تكون قادرة على نسف الفعل الذي قد يتخذ مسارا هداما. كما يمكننا، بل يتوجب علينا، أن نحارب كل لايقينيات الفعل، بل يمكننا أن نتجاوزها على المدى القصير أو المتوسط، لكن لا أحد بإمكانه أن يدعي إلغاءها على المدى البعيد. إن الاستراتيجية، مثل المعرفة، هي عبارة عن إبحار في لج محيط من اللايقينيات مرورا بأرخبيلات من اليقينيات.

إن الرغبة في التخلص من اللايقين يمكن أن تبدو لنا تبعا لذلك مثل مرض خاص يصيب فكرنا، وكل توجه نحو اليقين الأكبر لا يمكن أن يكون إلا بمثابة حمل وهمي. على الفكر إذن أن يتعود على، وأن يتسلح من أجل مواجهة اللايقين. إن كل ما يحتمل الحظ يحتمل المخاطرة، وعلى الفكر أن يعترف بالحظوظ الملازمة للمخاطرات وكذا بالمخاطرات الملازمة للحظوظ.

إن التخلي عن التقدم الحتمي حسب ما تمليه «قوانين التاريخ»، لا يعني التخلي عن التقدم ككل، بقدر ما يعني الاعتراف بطابعه اللايقيني والهش. فالتخلي عن التطلع نحو أفضل العوالم، ليس هو على الإطلاق التخلي عن الأمل في عالم أفضل.

للأسف غالبا ما شاهدنا، خلال مجرى التاريخ، أن الممكن قد يصبح مستحيلا، ويمكننا أن نستشعر كيف أن الإمكانات البشرية الأكثر غنى لازالت بعد من المستحيل تحقيقها. ولكننا شاهدنا كذلك أن غير المأمول يصبح ممكنا، وقابلا للتحقق، وغالبا ما علينا كيف أن اللامحتمل قد يتحقق أكثر من المحتمل. لنتعلم إذن كيف نأمل في تحقيق ما يبدو غير مأمول، ولنتعلم كيف نراهن على ما هو غير محتمل.

الفصل السادس

تَعْلِيمُ الفَهْمِ

إنها لوضعية مفارقة تلك التي نعيش عليها في أرضنا. فالترابطات تضاعفت، والتواصل ازدهر، إذ تم اختراق الكوكب بشبكات، الفاكس، والهواتف النقالة، والمحطات الصوتية، والإنترنيت. صحيح لقد تنامى الوعي بضرورة تضامن الناس مع بعضهم البعض في حياتهم وفي مماتهم، ولكن رغم ذلك فقد أصبح اللاتفاهم عملة سائدة بين الناس. بالتأكيد حصل ثمة تقدم بأشكال كبيرة ومتنوعة في مجال الفهم، لكن وبالموازاة مع ذلك يبدو أن اللافهم لازال يعرف تقدما كبيرا.

لقد غدا مشكل الفهم مشكلا أساسيا بالنسبة للناس، وبهذا الصدد يمكن القول: من الواجب أن يكون هذا المشكل أحد غايات التربية.

لنذكر هنا بأن لا تقنية من بين تقنيات التواصل، من هاتف، ومن أنترنيت، تحمل في ذاتها خاصية الفهم. لا يمكن إضفاء الطابع الرقمي على الفهم. ثمة فرق بين أن نربي من أجل تحصيل الفهم في الرياضيات أو في مادة تعليمية أخرى، وبين أن نربي من أجل اكتساب الفهم الإنساني. هنا تتجلى الرسالة الروحية المحضة للتربية: يتعلق الأمر بتعليم الفهم بين الناس، والذي هو الشرط والضامن لتحقق التضامن العقلي والأخلاقي للإنسانية. إن مشكل الفهم هو ذو قطبين مزدوجين:

+ قطب أصبح كوكبيا، ألا وهو التفاهم بين المتباعدين، بحيث تضاعفت اللقاءات والعلاقات بين الأشخاص، وبين الثقافات، وبين الشعوب المنتمية لثقافات مختلفة.

+ قطب فردي، ويتعلق الأمر بالعلاقات بين المقربين. إذ أصبحت هذه الأخيرة مهددة أكثر فأكثر باللاتفاهم (كما سنشير إلى ذلك لاحقا). إن الحكمة التي تقول

« كلما كنا قريبين من بعضنا البعض، تفاهمنا بشكل أفضل »، هي حكمة ليست صحيحة إلا نسبيا، إذ يمكن أن نعارضها بالحكمة التالية « كلما كنا قريبين من بعضنا البعض، قل تفاهمنا »، لأن التقارب يمكن أن يغذي كل أنواع سوء الفهم، وأشكال الغيرة والعدوانية، حتى في الأوساط التي يبدو ظاهريا أنها أكثر تطورا من الناحية العقلية.

1. نَوْعَا الفَهْمِ

لايؤدي التواصل إلى الفهم. فإذا كان الخبر مفهوما ومنقولا بشكل جيد، فإنه يسمح بنوع من الوضوح، والذي هو الشرط الأول الضروري للفهم، إلا أنه غير كاف.

هناك مستويان في الفهم: المستوى الأول هو الفهم العقلي أو الموضوعي، والمستوى الثاني هو الفهم الإنساني البين ـ ذاتي. فالفهم يعني عقليا أن نصل سويا إلى ضبط واستيعاب شيء ما (ضبط واستيعاب النص وسياقه، الأجزاء والكل، المتعدد والواحد). يشترط الفهم العقلي الوضوح والتفسير. فأن نفسر يعني أن نعتبر موضوع المعرفة بمثابة شيء، وأن نطبق عليه كل الوسائل الموضوعية في المعرفة. بالتأكيد إن التفسير ضروري بالنسبة للفهم العقلي والموضوعي، إلا أن الفهم الإنساني يتجاوز حدود التفسير. فالتفسير يكون كافيا من أجل الفهم العقلي أو الموضوعي المتعلق بأشياء مجردة أو مادية، لكنه غير كاف عندما يتعلق الأمر بالفهم الإنساني.

يحيل الفهم الإنساني على معرفة الذات للذات. هكذا فإذا رأيت طفلا يبكي سأفهمه، ليس اعتمادا على قياس درجة ملوحة دموعه، ولكن اعتمادا على الغوص في أعماقي واستخراج كل الشدائد التي عشتها في طفولتي، إذ أجعل هذا الطفل متماهيا معي كما أجعل نفسي متماهية معه. إننا لا ندرك الغير إدراكا موضوعيا فقط، بل إننا ندركه كذلك كذات أخرى نتطابق معها أو نجعلها متطابقة معنا، إنه أنا آخر، وقدأصبح غيرا (ذو أنا مستقلة). يتضمن الفهم بالضرورة سيرورة مكونة من محاولة معرفة الغير، والسعي نحو التطابق معه، والقيام بإسقاطات عليه. وبما أن الفهم هو دائما مسألة بين ذاتية، فإنه يقتضي بالضرورة الانفتاح، والتعاطف، والأريحية.

2. عوَائقُ الفَهْمِ

إن العوائق الخارجية بالنسبة للفهم العقلي أو الموضوعي هي عوائق متعددة. إن الغير مهدد دائما من كل حدب وصوب بعدم فهم معنى كلامه، وعدم فهم أفكاره، وعدم فهم رؤيته للعالم.

+ فهناك «الضجيج»، الذي يشوش على نقل الخبر، ويؤدي إلى سوء الفهم، وعدم الإنصات.

+ هناك أيضا تعدد معاني مفهوم ما، والذي قد نقوله بمعنى ما وقد يعطيه الآخر معنى مغايرا، هكذا فكلمة «الثقافة»، هي عبارة حقا عن مفهوم متعدد المعاني، إذ يمكن أن يعني كل ما لا يكون ذو طبيعة فطرية، ويجب تعلمه واستيعابه، ويمكن أن يعني كل السلوكات، والقيم، والمعتقدات، الخاصة بجماعة إثنية أو بأمة، كما يمكن أن يعني كذلك كل ما أنتجته الإنسانية من آداب، وفن، وفلسفة.

+ هناك الجهل بطقوس وعادات الغير، وخاصة طقوس المجاملة، والتي يمكن أن تقود لا شعوريا إما نحو التهجم على الغير أو نحو تبخيس قيمتنا اتجاهه.

+ ثمة عدم الفهم اتجاه القيم الإلزامية المتعلقة بثقافة مغايرة، مثلما هو الشأن بالنسبة لاحترام الشيوخ، والتزام الأطفال بالطاعة اللامشروطة، والمعتقد الديني، في المجتمعات التقليدية، أو كما هو الشأن بالنسبة لتقديس الفرد، واحترام الحريات في مجتمعات الديموقراطية المعاصرة.

+ هناك عدم فهم اتجاه الإلزامات الأخلاقية الخاصة بثقافة ما، مثل لزوم الانتقام في المجتمعات القبلية، أو لزوم القانون في المجتمعات المتطورة.

+ هناك في الغالب عدم تمكن رؤية معينة للعالم، من فهم أفكار أو حجج رؤية للعالم مغايرة، مثلما يتعذر على فلسفة ما فهم فلسفة مغايرة.

+ ،هناك في الأخير، وعلى الخصوص، استحالة فهم بنية عقلية لبنية عقلية مغايرة.

أما العوائق الداخلية الخاصة بكلا نوعي الفهم، فهي عوائق متعددة، إنها لا تختزل فقط في اللامبالاة ولكن أيضا في نزعة التمركز حول الذات، ونزعة التمركز حول العرق، ونزعة التمركز حول المجتمع. إن القاسم المشترك بين هذه النزعات الثلاث،

يكمن في كونها تموقع ذاتها في مركز العالم وتعتبر كل ما هو غريب أو بعيد هو شيء ثانوي، لا معنى له، أو شيء معاد لها.

1.2. نَزْعَةُ التَّمَرْكُزِ حَوْلَ الذَّات

تؤدي نزعة التمركز حول الذات إلى الكذب على الذات، وبالتالي إلى خداعها، وهذا شيء ناجم عن اللجوء إلى التبرير الذاتي وإلى تزكية الذات، والميل نحو جعل الغير مصدر كل الشرور، سواء كان هذا الغير عبارة عن غريب أو قريب لنا. إن خيبة الأمل الذاتية هي عبارة عن لعبة متكررة بشكل لا نهائي، تشمل الكذب، والصدق، والإقناع، والرياء إنها لعبة تقودنا إلى التعامل مع أقوال وأفعال الغير بطريقة قدحية، كما تقودنا إلى انتقاء غير اللائق منها وإقصاء ما هو لائق، وفي المقابل نعمل على انتقاء ما هو جليل في ذكرياتنا وإقصاء أو تحويل ما هو غير مشرف فيها.

إن « حلقة الصليب »، التي ألفها إيان بيرس، تبرز بوضوح من خلال أربع روايات مختلفة للأحداث نفسها، وبصدد نفس جريمة القتل، كيف أن التعارض القائم بين هذه الروايات، ناتج ليس فقط عن الإضمار والكذب، ولكن ناتج كذلك عن التصورات المسبقة، وعن أنواع التبرير العقلاني، وعن نزعة التمركز حول الذات أو عن الاعتقاد الديني. ويعتبر عمل لويس فرديناند سيلين، المعنون ب « االسعادة المؤجلة »، شهادة فريدة من نوعها على هذا التبرير الذاتي الذي عبر عنه الكاتب بشكل جنوني، إنها شهادة على عجزه عن انتقاد ذاته، وعلى طريقته الذهانية في البرهنة.

في الواقع، إن عدم فهم الذات هو مصدر هام جدا لعدم فهم الغير. فنحن نخفي عن ذواتنا عيوبنا ونقاط ضعفنا، الشيء الذي يجعلنا غير متسامحين مع عيوب ونقاط ضعف الغير.

تتقوى نزعة التمركز حول الذات عندما نطرح جانبا الإكراهات والإلزامات، والتي كانت سابقا تفرض التخلي عن الرغبات الفردية عندما تكون متعارضة مع رغبات الوالدين أو الزوجين. أما اليوم فاللاتفاهم يفتك بعلاقات الآباء بأبنائهم، وبعلاقات الأزواج بالزوجات. إنه ينتشر في كل مكان كسرطان يسري في جسد الحياة اليومية، مخلفا الوشايات والاعتداءات، والتصفيات النفسية (والمتمنيات بموت

الغير) . فحتى عالم المثقفين، الكتاب منهم أو الجامعيون، والذي من المفروض أن يكون عالما يحقق تفاهما أكثر، هو الآخر نجده أكثر فسادا بسبب تضخم الذات والذي يتنامى بسبب حاجة المثقف للتقديس وللمجد.

2.2. نَزْعَةُ التَّمَرْكُزِ حَوْلَ العِرْقِ، ونَزْعَةُ التَّمَرْكُزِ حَوْلَ المُجْتَمَعِ

تؤدي كل من نزعة التمركز حول العرق، ونزعة التمركز حول المجتمع، إلى أنواع مختلفة من كره الأجانب ومن النزعات العنصرية، والتي يمكن أن تصل إلى حدود نزع صفة الإنسان عن الأجنبي. هكذا فالصراع الحقيقي ضد النزعات العنصرية، من الأفضل أن يتم ضد جذورها المتمركزة حول الذات وحول المجتمع، عوض أن يتم ضد أعراضها.

إن مسببات ونتائج أسوء أنواع عدم الفهم لهي الأفكار المسبقة، وأنواع التبرير العقلاني المعتمدة على أواليات اعتباطية، وتبرير الذات بشكل جنوني، والعجز عن النقد الذاتي، واعتماد طريقة ذهانية في البرهنة، والكبرياء، والجحود والاحتقار، وخلق متهمين وهميين والعمل على محاكمتهم.

يتسبب عدم الفهم في الحماقة بقدر ما تتسبب الحماقة في عدم الفهم. كما أن التدمر يؤدي إلى اقتصاد في عمليتي الفحص والتحليل، وبهذا الصدد يقول كليمون روسي: «إن الإقصاء المبرر بدوافع أخلاقية، يسمح بتجنب كل مجهود عقلي يمكن أن يضفي على الموضوع المقصي، إلى درجة أن حكما أخلاقيا يعبر دائما عن رفض لكل تحليل أو حتى تفكير[1]» نفس الشيء لاحظه فيستيرمارك لما قال: «إن الطابع المميز للتدمر الأخلاقي، لهو الرغبة الغريزية في تثبيت قاعدة القصاص بالقصاص».

3.2. الفِكْرُ الاخْتِزَالِي

إن اختزال معرفة ما هو مركب في واحد فقط من عناصره - نعتبره وحده دالا عليه - يؤدي إلى نتائج وخيمة في المجال الأخلاقي أكثر من المجال الفيزيائي. والحالة هذه، يمكن القول بالتحديد إن هذا النمط المهيمن من المعرفة، الاختزالي والتبسيطي،

1) **د - روسي: «شيطان الطوطولوجيا»**، منشورات مينوي، 1997، ص. 68.

هو الذي يؤدي إلى اختزال شخصية متعددة بطبيعتها في أحد خاصياتها. فإذا كانت هذه الخاصية إيجابية، فمعنى ذلك أنه سيتم تجاهل الخاصيات السلبية لهذه الشخصية. وإذا كانت سلبية، فمعنى هذا أنه سيتم تجاهل خصائصها الإيجابية. وفي كلتا الحالتين نحن أمام عدم الفهم. إذ يتطلب منا الفهم، مثلا، أن لا نختزل كائنا إنسانيا في جريمة، أو حتى في جرائم عديدة اقترفتها، نقول لا يجب علينا اختزاله في نزعته الإجرامية.

وكما يقول هيغل: «إن التفكير المجرد لا يرى في المجرم شيئا آخر سوى هذه الصفة المجردة (والتي يتم عزلها عن طبيعته المركبة)، واعتمادا على هذه الصفة الأحادية يتم القضاء على ما تبقى من إنسانيته».

وبالإضافة إلى ذلك، لنذكر إن استحواذ فكرة ما أو إيمان ما علينا، والذي يجعلنا نقتنع مطلقا بحقيقته، هو الذي يؤدي إلى إلغاء كل إمكانية من أجل فهم فكرة مغايرة، أو إيمان مغاير، أو شخص مغاير.

إن عوائق الفهم متعددة ومتنوعة الأشكال، وأكثرها خطورة هي تلك التي تتكون من حلقة:

التمركز حول الذات ←—— التبرير الذاتي ←—— خداع الذات

ومن كل أنواع الأفكار التي تستحوذ علينا، وأنواع الاختزالات التي نقوم بها، ومن القصاص والانتقام، إنها عبارة عن بنيات متجذرة بشكل قوي في الفكر الإنساني، إلى درجة أنه لا يستطيع التخلص منها، ولكن رغم ذلك بإمكانه بل يجب عليه تجاوزها.

إن تظافر أنواع عدم الفهم، العقلي منه والإنساني، الفردي منه والجماعي، يشكل عائقا جوهريا أمام تحسين العلاقات بين الأفراد، والجماعات، والشعوب، والأمم.

فليست السبل الاقتصادية، والقانونية، والاجتماعية، والثقافية، هي وحدها التي تيسر طرق الفهم، إننا نحتاج أيضا إلى سبل عقلية وأخلاقية بإمكانها أن تنمي ازدواجية الفهم العقلي والإنساني.

3. أَخْلاَقُ الفَهْمِ

إن إخلاق الفهم هي عبارة عن فن العيش، الذي يتطلب منا أولا أن نكون قادرين على الفهم بشكل نزيه، إنها تتطلب مجهودا كبيرا لأنه لا يمكن أن ننتظر من الآخر أن يعاملنا بالمثل: فالشخص المتسامح عندما يكون مهددا بالموت من طرف شخص آخر متعصب، يفهم لماذا يريد المتعصب قتله، مع العلم أن هذا الأخير لن يفهمه أبدا. وأن نفهم المتعصب الذي هو عاجز عن فهمنا، يعني فهم جذور وأشكال وتجليات التعصب الإنساني، وبالتالي فهم لماذا وكيف نحقد ونحتقر. إن أخلاق الفهم تتطلب منا أن نفهم عدم الفهم.

تتطلب منا أخلاق الفهم أن نحاجج وأن نفند، عوض أن نعزل الآخرين ونلعنهم. فأن نسجن داخل مفهوم الخائن كل من له رؤية أوضح، يعني أن نمنع عن أنفسنا الاعتراف بالخطأ، وبالضلال، وبالإيديولوجيات، وبالانحرافات.

إن الفهم يقتضي منا لا أن نسامح ولا أن نتهم، بل إنه يتطلب منا أن نتجنب الإدانة القطعية، غير القابلة لإعادة النظر، كما لو أننا لم يسبق أبدا أن عرفنا نحن ذاتنا شيئا اسمه العجز، ولا أن ارتكبنا أخطاء. فلو عرفنا كيف نفهم قبل أن ندين، لأصبحنا نسير في طريق أنسنة العلاقات الإنسانية. يمكن رصد الأشياء التي تعزز الفهم كالتالي:

1.3. «التَّفْكِيرُ الجَيِّدُ»

إن نمط التفكير هو الذي يسمح لنا بأن نتمثل سويا كلا من النص والسياق، الكائن ومحيطه، المحلي والشمولي والمتعدد الأبعاد، وباختصار كل ما هو مركب. إنه يسمح لنا بفهم الشروط الموضوعية والذاتية للسلوك الإنساني (خداع الذات، وكل ما يستحوذ علينا من ايمان، ومن أنواع الهذايانات والهستيريات).

2.3. الاسْتِبْطَانُ

إنه لشيء ضروري أن نلجأ باستمرار إلى هذه الممارسة الذهنية المتجلية في الفحص ـ الذاتي، لأن فهم نقاط ضعفنا الخاصة أو نواقصنا، هو السبيل نحو فهم نقاط ضعف ونواقص الغير. عندما نكتشف أننا جميعا كائنات معرضة للخطأ، هشة، وغير

مكتفية بذاتها، وقاصرة، آنذاك يمكننا أن نكتشف أننا جميعا في حاجة متبادلة للفهم.

إن الفحص النقدي للذات يسمح لنا بأن نتحرر نسبيا من هذا التمركز حول ذواتنا، وبالتالي يسمح لنا بالاعتراف بنزعتنا هاته ومحاكمتها. إنه يسمح لنا بأن لا ننصب أنفسنا كقضاة يحكمون على كل الأشياء[1].

4. الوَعْيُ بِالطَّابَعِ المُرَكَّبِ للإنْسَان

إن فهم الغير يتطلب منا الوعي بالطابع المركب للإنسان. هكذا يمكننا أن نغترف من الآداب الروائي ومن السينما، إنه الوعي بضرورة عدم اختزال كائن ما في الجزء الأصغر من ذاته، ولا في أسوء لحظة في ماضيه. بينما نحن في حياتنا العادية نتسرع في حصر شخص داخل نعت المجرم لأنه قام بجريمة ما، مختزلين كل الجوانب الأخرى من حياته ومن شخصيته في خاصية واحدة. ففي أعمال شكسبير نكتشف الجوانب المتعددة لشخصيات الملوك المتسلطين، كما نكتشف الجوانب المتعددة لشخصيات قطاع الطرق الذين يحيون حياة الملوك كما تشخصها الأفلام السوداء. يمكن أن نرى كيف يمكن لمجرم أن يثوب ويسترجع سمعته، مثلما حدث مع جون فالجون أو رازكولنيكوف. وأخيرا يمكننا أن نتعلم من مثل هذه الأعمال الإبداعية الدروس الكبرى في الحياة، كأن نتعلم الشفقة على معاناة كل المهانين، وبالتالي أن نتعلم الفهم الحقيقي.

1.4. الانْفِتَاحُ الذَّاتِي (التَّعَاطُفِي) عَلى الغَيْرِ

صحيح إننا منفتحون على بعض الأقرباء المفضلين لدينا، لكننا في غالب الأوقات منغلقون اتجاه الغير. بحَثِّنَا على الاستخدام التام لذاتيتنا عن طريق عمليتي الإسقاط والتطابق، تعمل السينما على جعلنا نتعاطف ونفهم أولئك الذين نصادفهم في حياتنا العادية، وقد يكونون غرباء عنا أو ذوي طباع منفرة. فالشخص الذي ينفر

1) «هذا مغفل»، «هذا دنيء»، إنهما العبارتان اللتان تعبران في نفس الوقت عن عدم الفهم التام وعن الادعاء بالسيادة العقلية والأخلاقية.

من متشرذ يصادفه في الشارع، هو نفس الشخص الذي يتعاطف من كل قلبه في السينما مع المتشرد شاريو. فبينما نكون في حياتنا اليومية شبه لامبالين بأنواع البؤس المادي والمعنوي، فإننا أثناء قراءة رواية أو مشاهدة فيلم نشعر بالشفقة والعطف.

2.4. اسْتِدْخَالُ التَّسَامُح

لا يعني التسامح الحقيقي نوعا من اللامبالاة اتجاه الأفكار، أو اتجاه النزعات الشكية المعممة. بقدر ما يعني افتراض وجود قناعة، أو إيمان، أو اختيار أخلاقي لدينا، ولكن يعني كذلك أن نقبل في نفس الوقت بالتعبير عن أفكار، وقناعات، واختيارات مناقضة لتلك التي لدينا نحن. يقتضي التسامح نوعا من المعاناة في تحمل التعبير عن أفكار تبدو لنا سيئة، كما يقتضي إرادة في تحمل مسؤولية هذه المعاناة.

هناك أربع مستويات في التسامح: المستوى الأول، هو الذي عبر عنه فولتير لما طلب منا أن نحترم الحق في التعبير عن مقصد قد يبدو لنا دنيئا، ليس المقصود هنا احترام ما هو دنيء، بل أن نتجنب فرض تصورنا الخاص لما هو دنيء، كمبرر لمنع حق الغير في الكلام.

المستوى الثاني للتسامح غير مفصول عن التوجه الديموقراطي: فأساس الديموقراطية هو وجود آراء مختلفة ومتناقضة، هكذا فالمبدأ الديموقراطي يلزم كل منا باحترام التعبير عن أفكار مناقضة لأفكارنا. المستوى الثالث للتسامح متعلق بالتصور الذي أعطاه نيلز بوهر، إذ حسب هذا الأخير فنقيض فكرة ما عميقة هو فكرة أخرى عميقة، وبصيغة أخرى الاعتراف بثمة حقيقة في الفكرة المناقضة لفكرتنا، وهذه الحقيقة هي التي يتعين علينا احترامها.

المستوى الرابع للتسامح، مصدره الوعي بخضوع الإنسان للأساطير، للإيديولوجيات، وللأفكار وللآلهة، وكذا الوعي بالانحرافات التي تحمل الأفراد إلى مدى أبعد وخارج عن ذاك الذي كانوا يودون بلوغه. بالتأكيد إن التسامح متعلق بالأفكار، وليس بالشتائم، وبالاعتداءات، وبالأفعال الإجرامية.

5. كَوْكَبِيَّةُ الفَهْمِ والأَخْلاقِ والثَّقافَة

علينا أن نربط أخلاق فهم الأشخاص لبعضهم البعض، بأخلاق العصر الكوكبي الذي يتطلب عولمة الفهم. إن العولمة التي تخدم الجنس البشري هي المتعلقة بعولمة الفهم. على الثقافات أن تتعلم من بعضها البعض. وعلى الثقافات الغربية المتكبرة، التي فرضت نفسها كثقافة معلمة، أن تصبح ثقافة متعلمة أيضا. ومن تم يمكن القول إن الفهم يعني كذلك، هذه القدرة المستديمة على التعلم وإعادة التعلم.

كيف يمكن للثقافات أن تتواصل مع بعضها البعض؟ لقد قدم لنا ما غورروه ماريانا اقتراحا مفيدا بهذا الصدد[1].

ففي كل ثقافة تكون العقليات المهيمنة متمركزة حول العرق أو حول المجتمع، أي أنها تكاد تكون منغلقة اتجاه الثقافات المغايرة. ولكن هناك داخل كل ثقافة عقليات متفتحة، وفضولية، وغير أورثودوكسية، ومنحرفة. بل هناك عقليات هجينة، باعتبارها ثمرات زواجات مختلطة، تشكل الجسور الطبيعية الرابطة بين الثقافات. إذ غالبا ما يكون المنحرفون عبارة عن كتاب أوشعراء، ينجحون في جعل خطابهم مشعا داخل بلدانهم وداخل العالم الخارجي كذلك.

عندما يتعلق الأمر بالفن، وبالموسيقى، وبالآداب، وبالفكر، فالعولمة الثقافية لا يمكن أن تخلق التجانس. إذ يظهر نوع من الموجات الكبرى التي تخترق ما هو محلي، لكنها تعمل في نفس الوقت على التشبث بأصولها المحلية. هذا ما حدث في أوروبا بالنسبة للنزعة الكلاسيكية، والأنوارية، والرومانسية، والواقعية، والسوريالية. وفي يومنا هذا نجد أن الروائيين اليابانيين، واللاتينوأمريكيين، والإفريقيين ينشرون أعمالهم بألسن أوروبية، كما أن الروايات الأوروبية تنتشر في آسيا، وفي الشرق، وفي إفريقيا، وفي أمريكا عموما. إن ترجمات الروايات، والدراسات الأدبية، والكتب الفلسفية من لسان إلى لسان آخر، يسمح لكل ثقافة بأن تتغذى من ثقافات العالم ككل، ومن خلال أعمالها الخاصة تعمل كذلك على إغناء ما يمكن تسميته بخليط ثقافي كوكبي. إن تطور هذا الخليط الثقافي، والذي لازال محدودا، هو خاصية مميزة للجزء الثاني من القرن 20، ويجب أن يتمم في القرن 21، معززا بذلك عولمة الفهم.

1) «المنظورات العقلية، والصناعية، والثقافية في مجال التسيير، مجلة البحث في التسيير، ج .2، ع .2، يونيو 1993، ص 138-154، منشورات صاح 114/50.

وبالموازاة مع ذلك فالثقافات الشرقية، تثير في الغرب أنواعا مختلفة من الفضول ومن التساؤلات، فلقد ترجم الغرب سابقا في القرن 18 الآفيستا والأوبانيشاد، كما ترجم في القرن 19 كونفوشيوس ولاوتسو، لكن هذه الرسالات الآتية من آسيا ظلت مجالا فقط للدراسات العلمية. وفقط في القرن 20 أصبح الفن الإفريقي، والفلسفات والنزعات الصوفية في الإسلام، والنصوص المقدسة الهندية، وفكر طاو، وفكر البوذية، كلها أصبحت مصادر حية للروح الغربية المنغمسة / المسجونة في عالم الفاعلية، والإنتاجية، والفعالية، والتسلية، إذ أصبحت هذه الروح الغربية تتوق نحو السلام الداخلي، ونحو علاقة متناغمة مع الجسد.

قد تبدو الثقافة الغربية بالنسبة للثقافات المغايرة، كثقافة غير مفهومة وغير متفهمة في نفس الوقت. إلا أن العقلانية المتفتحة والمتسمة بالنقد الذاتي، والمنحدرة من الثقافة الغربية، بإمكانها أن تسمح بفهم وإدماج ما طورته الثقافات المغايرة. على الغرب أن يدمج بداخله فضائل الثقافات الأخرى من أجل أن يصحح المسار الذي اتخذته نزعات الفاعلية، والبراغماتية، والكمية، والاستهلاكية، بما هي نزعات جامحة ترعرعت داخل الغرب وامتدت إلى خارجه. ولكن يجب عليه كذلك أن يحيي، ويحافظ على أفضل ما في ثقافته، ويعمل على انتشارها. إنها الثقافة التي أنتجت الديموقراطية، وحقوق الإنسان، وحماية الفضاء الخاص للمواطن.

إن الفهم المتبادل بين المجتمعات، يفترض مجتمعات ديموقراطية متفتحة، وهذا يعني أن الطريق نحو الفهم المتبادل بين الثقافات، والشعوب، والأمم، يمر عبر تعميم المجتمعات الديموقراطية المتفتحة. ولكن علينا أن لا ننسى أن الفهم كمشكلة إبيستيمولوجية تطرح حتى في المجتمعات الديموقراطية المتفتحة: فلكي يكون هناك فهم بنيات التفكير، يجب أن نمتلك القدرة على الانتقال إلى ميتا بنية متعلقة بتفكير يفهم مسببات عدم الفهم، السائدة بين هذه البنيات اتجاه بعضها البعض، والتي بإمكانه تجاوزها.

إن الفهم هو في نفس الوقت وسيلة وغاية التواصل الإنساني. فلا يمكن أن يكون هناك تقدم في مجال العلاقات بين الأفراد، والأمم، والثقافات، بدون فهم متبادل. ولفهم الأهمية الحيوية للفهم، يجب إصلاح العقليات، الشيء الذي يستلزم بطريقة متناظرة إصلاح التربية.

الفصل السابع

أَخْلاَقُ الجِنْسِ البَشَرِيّ

يتضمن التصور المركب للجنس البشري، كما رأينا ذلك في الفصل الثالث، الثالوث التالي :

الفرد ←—— المجتمع ←—— النوع فالأفراد هم أكثر من مجرد نتاج لسيرورة تعمل على إعادة إنتاج النوع البشري، لأن هذه السيرورة ذاتها ينتجها الأفراد في كل جيل. فالتفاعلات بين الأفراد تنتج المجتمع، وهذا الأخير يرتد على الأفراد. إن الثقافة بالمعنى العام، من خلال هذه التفاعلات التي أنتجتها وأنتجت ذاتها كذلك، تعمل على إفراز المجتمع والأفراد.

هكذا فالأفراد←——المجتمع ←——النوع، ليست فقط عناصر غير مفصولة عن بعضها البعض، بل هي تنتج بعضها البعض بشكل مشترك كل واحد من هذه المكونات هو في الوقت نفسه وسيلة وغاية بالنسبة للمكونات الأخرى. ولا يمكننا أن نجعل واحدة منها هي الغاية الأسمى لهذا الثالوث، ذلك أن هذا الأخير هو عبارة عن دائرة تشكل غاية في ذاتها. وبالتالي فهذه المكونات غير مفصولة عن بعضها البعض : فكل تطور للجنس البشري يعني وجود تطور مرافق له في أشكال الاستقلال الفردي، وفي المساهمات الجماعية، وفي الإحساس بالانتماء للنوع البشري. وداخل هذا الثالوث المركب، يبرز الوعي.

ومن هذا المنطلق فالأخلاق الإنسانية المحضة، وهي ما نعنيه بقولنا الأنتروبو-أخلاقية، يجب أن تعتبر كأخلاق خاصة بحلقة مكونة من مصطلحات ثلاث :

الفرد←——النوع (البشري) ←—— المجتمع ومن هنا يبرز وعينا وفكرنا الإنساني المحض. ذلك هو أساس الأنتوبو-أخلاقية، أو أخلاق الجنس البشري.

تفترض الأنتروبو-أخلاقية اتخاذ قرار واع ومستنير يهدف إلى :

+ الأخذ بعين الاعتبار الشرط الإنساني : الفرد ← المجتمع ← النوع (البشري)، في إطار وجودنا المركب.

+ العمل على جعل وعينا الشخصي يصبو نحو اكتمال الإنسانية داخل أنفسنا.

+ الأخذ بعين الاعتبار المصير الإنساني، في تناقضاته وفي امتلائه.

تتطلب الأنتروبو ـ أخلاقية، الأخذ بعين الاعتبار المهمة الأنتروبولوجية للألفية، والمتمثلة في :

+ الدفع في اتجاه أنسنة الإنسانية.

+ القيام بقيادة مزدوجة للكوكب : يتعلق الأمر من جهة بالانصياع للحياة، ومن جهة ثانية بتوجيهها.

+ العمل على اكتمال الوحدة الكوكبية، في إطار التعددية.

+ احترام الغير في اختلافه عنا، وفي تطابقه معنا في نفس الوقت.

+ السعي نحو تطوير أخلاق التضامن.

+ السعي نحو تطوير أخلاق الفهم.

هكذا فالأنتروبو ـ أخلاقية تتضمن الأمل في اكتمال الإنسانية، بما هي وعي ومواطنة كوكبية. إنها تتضمن إذن، كباقي الأخلاقيات، تطلعا وإرادة، ولكن تتطلب أيضا حضور المراهنة داخل اللايقين. إنها عبارة عن وعي فردي يتجاوز النزعة الفردية.

1 . حَلَقَةُ الفَرْدِ ← المُجْتَمَع : تَعْلِيمُ الدِّيمُوقْرَاطِيَّة

لا يمكن أن يوجد كل من الفرد والمجتمع بمعزل عن بعضهما البعض. لذا فالديموقراطية تسمح ببناء علاقة غنية ومركبة بين الفرد ← المجتمع، حيث يكون المجتمع والأفراد قادرين على الانفتاح والتعاون فيما بينهما، وعلى تنظيم ومراقبة بعضهما البعض.

تتأسس الديموقراطية على مراقبة جهاز السلطة من طرف المراقَبين (بفتح القاف)، ومن تم التقليص من حدة الاستعباد (الذي يميز سلطة لا تخضع لرد فعل من

طرف أولئك الذين تقوم بإخضاعهم)، وبهذا المعنى فالديموقراطية هي أكثر من مجرد نظام سياسي، إنها خلق متجدد لحلقة مركبة وارتدادية: ينتج المواطنون الديموقراطية، وتعمل هذه الأخيرة على إنتاجهم.

وعلى خلاف المجتمعات الديموقراطية، القائمة على الحريات الفردية وتحميل الأفراد المسؤولية، فإن المجتمعات السلطوية والكليانية تستعمر - بالمعنى الاستعبادي للكلمة - الأفراد الذين يخضعون لها. في الديموقراطية يكون الفرد مواطنا، وذاتا بكل ما تحمله الكلمة من معنى الاستقلالية، إنه من جهة شخص يعبر عن متمنياته ومصالحه، ومن جهة ثانية فهو شخص مسؤول عن مدينته ومتضامن معها.

1.1. الدِّيمُوقْرَاطِيَّة والبُعْدُ المُرَكَّبُ

لا يمكن أن نحدد الديموقراطية بطريقة بسيطة. فسيادة الشعب المواطن تتضمن في نفس الوقت، التقنين الذاتي لهذه السيادة عن طريق طاعة القوانين وتحويل السيادة إلى المنتخبين، كما تتضمن الديموقراطية كذلك التقنين الذاتي لنفوذ الدولة عن طريق الفصل بين السلطات، وضمان الحقوق الفردية، وحماية الحياة الخاصة.

تحتاج الديموقراطية بطبيعة الحال إلى توافق أغلب المواطنين، واحترام القواعد الديموقراطية، لكنها في نفس الوقت تحتاج إلى التعددية وإلى أنواع من الصراعات.

لقد أظهرت تجربة الأنظمة الكليانية، أن الطابع المميز للديموقراطية هو علاقتها الحية بالتعددية. تفترض الديموقراطية، وتعمل على تغذية تعددية المصالح وتعددية الأفكار كذلك. إن احترام التعددية يعني أن الديموقراطية لا يمكن أن تكون متطابقة مع ممارسة ديكتاتورية الجماعة على الأقليات، يجب أن تضمن الديموقراطية حق الأقليات وحق المحتجين في الوجود وفي التعبير، كما يجب أن تسمح بالتعبير عن الأفكار الشاذة والمنحرفة. ومثلما يجب حماية تعددية أنواع الكائنات الحية من أجل الحفاظ على المحيط الحيوي، يجب كذلك حماية تعددية الأفكار والآراء، وحماية تعددية مصادر الخبر (الصحافة، ووسائل الإعلام)، من أجل الحفاظ على الحياة الديموقراطية.

تحتاج الديموقراطية في نفس الوقت كذلك، إلى صراعات بين الأفكار والآراء لأنها هي التي تضفي الحيوية والإنتاجية على الديموقراطية. لكن حيوية وإنتاجية هذه

الصراعات، لا يمكن أن تنمو إلا بالخضوع لقواعد اللعبة الديموقراطية، التي تنظم التناقضات وتعوض المعارك المادية بمعارك بين الأفكار، فتحدد بواسطة الجدالات والانتخابات من سينتصر مؤقتا من بين تلك الأفكار المتصارعة، وفي المقابل من الذي يمتلك مسؤولية العمل على تطبيق تلك الأفكار.

هكذا ولأن الديموقراطية تتطلب في نفس الوقت التوافق، والتعددية، والصراعية، أفلا يمكن القول إنها تشكل نسقا مركبا من التنظيم ومن الحضارة السياسيتين إنه نسق يغذي ويتغذى من استقلالية الأفراد، ومن حريتهم في التعبير وإبداء الرأي، ومن مدنيتهم، إنه نسق يغذي ويتغذى من النموذج الأمثل التالي:

الحرية ——— المساواة ——— الإيخاء، هذا الأخير الذي يتضمن نوعا من التصارع الخلاق بين هذه المصطلحات الثلاث غير المفصولة عن بعضها البعض.

تشكل الديموقراطية إذن نسقا سياسيا مركبا، بالمعنى الذي يجعلها تحيا بفضل هذه الأشكال من التعدديات، والمنافسات، والتناقضات، مع الحفاظ على وحدة الجماعة. هكذا فالديموقراطية عبارة عن وحدة توحد داخلها بين الوحدة والانشقاق، إنها تقبل وتتغذى كثيرا، وأحيانا بشكل هيجاني، من الصراعات التي تضفي عليها تلك الحيوية التي تتميز بها. إنها تحيا بفضل هذه التعددية، الموجودة حتى على صعيد الدولة (تقسيم السلط: التشريعية، والتنفيذية، والقضائية)، يجب على الديموقراطية أن تحافظ على هذه التعددية لكي تحافظ على ذاتها.

إن تطور المركبات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية يغذي أنواعا مختلفة من تطور النزعة الفردية، وتتجلى هذه الأخيرة في حقوق الفرد (حقوقه كشخص له حياته الخاصة، وحقوقه كمواطن)، إنها تقوم كذلك على أساس أنواع متعددة من الحرية الوجودية (الاختيار المستقل لشريك الحياة، وللإقامة، ولوسائل الترفيه...).

2.1. الحوَارِيَّةُ الدِّيُموقْرَاطِيَّةُ

يمكن القول إن كل الخاصيات الهامة للديموقراطية لها طابع حواري، يجمع بشكل تكاملي بين مصطلحات متناقضة:

التوافق / التصارع، الحرية ——— المساواة ——— الإيخاء، الجماعة

الوطنية/التناقضات الاجتماعية والإيديولوجية. وأخيرا فالديموقراطية رهينة بشروط متعلقة هي الأخرى بممارسة الديموقراطية (وجود فكر مدني، قبول قاعدة اللعبة الديموقراطية).

كل الديموقراطيات هشة إنها تحيا من الصراعات، لكن هذه الأخيرة قد تغرقها. كما أن الديموقراطية ليست معممة بعد في مجموع أنحاء الكوكب، والذي لازال يشهد العديد من الديكتاتوريات وبقايا الكليانيات التي عرفها القرن 20، كما يشهد وجود إرهاصات أولية لبروز كليانيات جديدة. صحيح ستبقى الديموقراطية معرضة للتهديد في القرن 20. وعلاوة على ذلك فحتى الديموقراطيات الموجودة ليست ديموقراطيات تامة، بل هي ديموقراطيات ناقصة وغير مكتملة.

لقد استغرقت دمقرطة المجتمعات الغربية سيرورة طويلة الأمد، والتي استمرت بشكل غير منتظم في بعض المجالات، مثل بلوغ النساء إلى المساواة مع الرجال في الزواج، في الشغل، وفي احتلال مناصب في المصالح العمومية. لم تنجح الاشتراكية الغربية في دمقرطة التنظيم الاقتصادي/الاجتماعي لمجتمعاتنا. لقد ظلت المؤسسات عبارة عن أنسقة سلطوية تراتبية، تمت دمقرطتها جزئيا بناء على تأسيس المجالس والنقابات. بالتأكيد هناك حدود لدمقرطة المؤسسات والتي تكون مدى فعاليتها رهينة بالطاعة، مثل الجيش، ولكن يمكن أن نتساءل - مثلما تكشف عن ذلك بعض المؤسسات - أليس من الممكن أن نكتسب فعالية أخرى، من خلال حث الأفراد والجماعات على روح المبادرة وتحمل المسؤولية.

وعلى أية حال فديموقراطيتنا فيها نواقص وعيوب، إذ لا يتم استشارة المواطنين المعنيين حول البدائل الممكنة مثلا في مجال النقل (قطار مكوكي سريع، الطائرات ذات الحمولة الكبيرة، الطرق السيارة، الخ).

لا يتعلق الأمر فقط بديموقراطيات غير مكتملة، بل ثمة سيرورات تعكس نوعا من التراجع الديموقراطي، إنها تلك التي تميل إلى نزع حق المواطنين في المساهمة في القرارات السياسية الكبرى (تحت ادعاء أنها قرارات جد «معقدة» ويجب أن يتخذها «الخبراء»)، كما تميل إلى إيقاف نمو كفاءاتهم. بل إنها تهدد التعددية، وتحط من درجة التمدن.

إن سيرورات التراجع هذه مرتبطة بتفاقم تعقد المشاكل، وبالنمط المشوه في معالجتها، فالسياسة تتوزع إلى مجالات مختلفة، وتقل إن لم نقل تنعدم إمكانية إدراكها في مجملها.

في نفس السياق، يمكن الحديث عن نزع التسيس عن السياسة، والتي تتغلغل من تلقاء ذاتها في مجالات الإدارة، والتقنية (الخبرة)، والاقتصاد، والتفكير الكمي (التحريات، الإحصاءات). إن ما تبقى من السياسة يفقد إمكانية فهم الحياة، وأنواع المعاناة، وأشكال الضيق، وأنواع العزلة، والحاجيات غير القابلة للتكميم. كل هذا يؤدي إلى تراجع مهول للديموقراطية، إذ يصبح المواطنون معزولون عن المشاكل الجوهرية للمدينة.

3.1. مُسْتَقْبَلُ الدِّيمُوقْرَاطِيَّة

ثمة مشكلة ضخمة، ستواجه أكثر فأكثر ديموقراطيات القرن 21، إنها مشكلة ناتجة عن تطور هذه الآلة الكبرى، حيث يوجد كل من العلم، والتقنية، والبيروقراطية، في ترابط وثيق. إن هذه الآلة الكبرى لم تنتج فقط المعرفة والوضوح، بل أنتجت كذلك الجهل والعماء. فالتطورات الحاصلة في مختلف مجالات العلوم لم تحمل معها فقط إيجابيات تقسيم العمل، بل حملت معها كذلك سلبيات التخصص الفائق، وفصل وتجزيء المعرفة. هذه الأخيرة التي أصبحت أكثر فأكثر معرفة نخبوية (لايدركها إلا المتخصصون)، ومجهولة الهوية (إذ توجد متمركزة في أبناك المعلومات، تستعمل من طرف أجهزة مجهولة وعلى رأسها الدولة). وبالمثل فالمعرفة التقنية أصبحت حكرا على الخبراء، الذين وإن كان يشهد لهم بالكفاءة في مجال مغلق، فإنهم يصبحون غير أكفاء عندما يتعرض هذا المجال للتشويش، الذي قد تحدثه المؤثرات الخارجية، أو عندما يتعرض هذا المجال لتعديل يفرضه حدث جديد. في مثل هذه الشروط يفقد المواطن الحق في المعرفة، صحيح له الحق في اكتساب معرفة متخصصة باتباع الدراسات المناسبة لذلك، ولكن ليس له الحق كمواطن في إبداء أي وجهة نظر إجمالية وملائمة. فعلى سبيل المثال ليس من حق المواطن التفكير في السلاح الذري أو في مراقبته، ذلك أن استعماله أمر متروك للقرار الشخصي الذي

يتخذه رئيس الدولة وحده، دون استشارة أي جهاز ديموقراطي، قانوني. لذا فكلما أصبحت السياسة عبارة عن تقنية، إلا ووقع تراجع في الكفاءة الديموقراطية.

لا يطرح المشكل فقط عندما يتعلق الأمر بالأزمة أو الحرب، بل حتى عندما يتعلق الأمر بالحياة اليومية، ذلك أن تطور التقنوبيروقراطية يؤدي إلى استتباب سيادة الخبراء على جميع المجالات، والتي كانت إلى عهد قريب تثير نقاشات وتفرز قرارات سياسية.

وبشكل أعمق نقول إن الهوة تتسع بين نزعة تقنو-علمية نخبوية، وبين المواطنين. الشيء الذي يعمق أكثر ثنائية العارفين - والذين لا يمتلكون سوى جانب من المعرفة مجزأ، بحيث لا يستطيعون إدراك سياق المعرفة، ولا مقاربتها من منظور شمولي - والجاهلين، يعني مجموع المواطنين. هكذا يتم خلق شرخ اجتماعي جديد، يميز بين ظهور «طبقة جديدة» معزولة عن باقي المواطنين. إنها نفس السيرورة التي تتحكم في الانخراط داخل التكنولوجيات الجديدة للتواصل، والتي تميز الدول الغنية عن الدول الفقيرة.

هكذا يتم إقصاء المواطنين عن المجالات السياسية، والتي أصبحت محتكرة أكثر فأكثر من طرف «الخبراء»، لذا يمكن القول إن هيمنة «الطبقة الجديدة» يحول في الواقع دون دمقرطة المعرفة.

وإجمالا يمكن القول، إن اختزال ما هو سياسي في ما هو تقني واقتصادي، وكذا اختزال ما هو اقتصادي في مسألة النمو، ثم فقدان المعايير والآفاق، كلها شروط تؤدي إلى إضعاف المدنية، وإلى الهروب والتقوقع في الحياة الخاصة، وإلى التأرجح بين اللامبالاة وبين إحداث ثورات عنيفة. هكذا فعلى الرغم من الحفاظ على المؤسسات الديموقراطية، فالحياة الديموقراطية معرضة للتلف.

في مثل هذه الشروط، يطرح على المجتمعات الموسومة بالديموقراطية، ضرورة إعادة إحياء الديموقراطية، في الوقت الذي نجد فيه أن المشكل المطروح داخل جزء كبير من العالم هو بروز الديموقراطية، كما يتطلب منا الكوكب ضرورة خلق إمكانية ديموقراطية جديدة تنسحب على صعيد الكوكب ككل.

إن إعادة إحياء الديموقراطية تفترض إعادة إحياء المدينة، كما أن إعادة إحياء المدينة تفترض إعادة إحياء التضامن والمسؤولية، وبالتالي يعني حدوث تطور في مجال

الأنتروبو ـ أخلاقية[1].

2. حَلَقَةُ الفَرْدِ ـــــ النَّوْعِ: تَعْلِيمُ المُوَاطَنَةِ الأَرْضِيَّة

ثمة تأكيد، منذ الحضارات القديمة، على الربط الأخلاقي بين الفرد والنوع البشري. ففي عمل معنون ب« جلاد ذاته »، والمؤلف في القرن 2 ق.م، قال الكاتب اللاتيني طيرونس على لسان أحد الشخوص « إنني إنساني »، ولاشيء مما هو إنساني يبدو لي غريبا ».

لقد تعرضت هذه الأنتروبوأخلاقية إلى نوع من الحجب، والتعتيم، والإضعاف من طرف الأخلاقيات الثقافية المختلفة والمغلقة، لكنها لم تكف على أن تكون مدعمة من طرف الديانات الكونية الكبرى، ولم تكف عن إعادة الظهور في الاتجاهات الأخلاقية الكونية، وفي النزعة الإنسانية، وفي حقوق الإنسان، وفي مفهوم الإلزام الكانطي.

لقد قال كانط سابقا، إن التناهي الجغرافي لأرضنا يفرض على ساكنتها مبدأ الضيافة الكونية، ويفرض عليهم الاعتراف بحق الغير في أن لا يعامل كعدو. وانطلاقا من القرن 20، أصبحت الجماعة البشرية محكومة بمصير أرضي مشترك، يفرض علينا بإلحاح التضامن.

3. الإِنْسَانِيَّةُ كَمَصِيرٍ كَوْكَبِيٍّ

إن الجماعة البشرية ذات المصير الكوكبي، تسمح بالعمل على تحقق واكتمال هذا الجزء من الأنتروبو-أخلاقية، والمرتبط بالعلاقة بين الفرد المتفرد وبين النوع البشري

1) يمكن ان نتساءل اليس في مقدور المدرسة، ان تكون عمليا وبالملموس مختبرا للحياة الديموقراطية؟ بالتأكيد يتعلق الأمر بديموقراطية محدودة، بالمعنى الذي نجد فيه انه لا يمكننا ان نلغي اللامساواة المبدئية بين من يعرفون ومن يتعلمون. غير ان السلطة لا يمكن ان تكون غير مشروطة (وعلى كل حال فالاستقلالية التي تتميز بها شريحة المراهقين تستلزم ذلك)، ويمكن ان تؤسس على قواعد تضع موضع شك القرارات التي قد نعتبرها قرارات اعتباطية، ولكن يجب على الخصوص، أن يكون الفصل فضاء لتعلم الجدال الحجاجي، والقواعد الضرورية للمناقشة، ولتحصيل الوعي بضرورات وإجراءات فهم تفكير الغير، وللإنصات ولاحترام أصوات الأقليات وتلك التي تخرج عن ما هو سائد. هكذا فتعلم الفهم يجب ان يلعب دورا أساسيا في التعلم الديموقراطي.

بما هو كل. عليها أن تعمل على جعل النوع البشري يتطور في اتجاه الإنسانية، مع الحفاظ على شرطه البيولوجي-التناسلي، وهذا يعني العمل على تحقيق الوعي المشترك والتضامن الكوكبي للجنس البشري.

لقد كفت الإنسانية عن أن تكون مجرد مفهوم بيولوجي، رغم أنها غير منفصلة عن المحيط الحيوي. لقد كفت الإنسانية عن أن تكون مفهوما بدون جذور: إنها متجذرة في «وطن»، في أرض، والأرض هي عبارة عن وطن في خطر. لقد كفت الإنسانية عن أن تكون مفهوما مجردا: إنها واقع حي، لأنها أصبحت ولأول مرة مهددة بالموت. لقد كفت الإنسانية عن أن تكون مجرد مفهوم مثالي، إذ أصبحت جماعة ذات مصير مشترك، ووحده الوعي بهذه الجماعة يمكن أن يقود نحو ما يمكن تسميته بجماعة الحياة. لقد أصبحت الإنسانية على الخصوص مفهوما أخلاقيا: إنها ما يجب أن يتحقق من طرف الجميع، وما يجب أن يتحقق كليا داخل كل واحد منا. فبينما لازال النوع البشري مستمرا في مغامرته، تحت التهديد بالتدمير الذاتي، أصبح الإلزام الأخلاقي هو كالتالي: لننقذ الإنسانية بالعمل على تحقيقها.

بالتأكيد إن الهيمنة، والضغط والوحشية الإنسانية تتوطن وتتفاقم خطورتها فوق الكوكب. يتعلق الأمر بمشكل تاريخي أساسي، والذي ليس لدينا حلا جاهزا بصدده، ووحدها السيرورة المتعددة الأبعاد، والتي تسعى نحو تحضر كل واحد منا، وتحضر مجتمعاتنا، وتحضر الأرض، قادرة على معالجته.

فبالإضافة إلى سياسة الإنسان[1]، وسياسة الحضارة، وإصلاح الفكر، تعمل الأنتربو-أخلاقية بما هي نزعة إنسانية[2] حقيقية كما يعمل الوعي بالأرض على التقليص من الخزي الذي يطال هذا العالم.

هكذا فمقصدنا الأخلاقي والسياسي، يتطلب منا في نفس الوقت تطوير علاقة:

الفرد ←——→ المجتمع في الاتجاه الديموقراطي، وتطوير علاقة:

الفرد ←——→ النوع بمعنى تحقق الإنسانية، وبالتالي يعني التطوير المتبادل لمصطلحات الثالوث:

1) انظر إدغار موران: «مدخل إلى سياسة خاصة بالإنسان»، منشورات لوسوي، 1999.

2)انظر كذلك إدغار موران: «سياسة الحضارة»، منشورات أرليا، 1997.

الفرد ـــــــ المجتمع ـــــــ النوع.

إننا لا نمتلك المفاتيح التي من شأنها أن تفتح لنا أبواب مستقبل أفضل، إننا لا نعرف طريقا مرسوما يمكن السير فيه، لكننا نستطيع «أن نكتشف الطريق من خلال السير»، كما يقول أنطونيو ماشادو. ولكن بإمكاننا أن نحدد غايتنا، والمتمثلة في الاستمرار في أنسنة الإنسانية، عن طريق تحقيق المواطنة الأرضية في إطار جماعة بشرية كوكبية.

حول البيبليوغرافيا

إن هذا النص الذي يتخذ صبغة اقتراحية وتأملية، لا يتضمن بيبليوغرافيا. ذلك أن سعة المعارف السبعة، تحيل من جهة على بيبليوغرافيا كثيرة، بحيث أن حدود حجم هذا الكتاب لا تسمح بتسجيلها كلها. ومن جهة ثانية، لا أود أن أفرض بيبليوغرافيا قصيرة منتقاة، إذ من المستساغ بالنسبة لكل قارئ أن يكون حكمه الخاص عبر القيام بقراءات. وأخيرا كل بلد يتوفر على أعمال ممتحة من ثقافته الخاصة، ولا نود هنا أن نقوم بأي إقصاء، في الوقت الذي نعتقد فيه أننا قمنا بانتقاء.

المعجم

Anthropo-éthique	الأنتروبو-أخلاقية
Australopithèque	المنتميات لرئيسيات مؤنسنة
Autoglorification	تزكية الذات
Autojustification	تبرير الذات
Auto-organisation vivante	تنظيم ذاتي حي
Bacille	العصية
Biosphère	محيط حيوي
Cécité (de la connaissance)	العمى المعرفي
Citoyenneté terrestre	المواطنة الأرضية
Complexe	مركب
Cortes	مخ
Dialogique	الحوارية
Diaspora	تشتت بشري
Egocentrisme	نزعة التمركز حول الذات
Encéphale	دماغ
Ethnocentrisme	نزعة التمركز حول الذات
Genre	الجنس
Holograme	الهولوغرام
Homonisation	الأنسنة
Homo-sapiens	الإنسان العاقل
Homo-habilis	الإنسان الحاذق
Homo-érectus	الإنسان المروض
Identité terrienne	الهوية الأرضية
Idéalité	نزعة تفكيرية
Idéalisme	نزعة مثالية
Imprinting	استطباع

Incertitude	اللايقين
Interdependant	مترابط
Intersubjectif	بين - ذاتي
Inter - rètro - actions	الأفعال الداخلية الارتدادية
Introspection	الاستبطان
Mésocéphale	المنطقة المتوسطة للدماغ
Multidimensionel	متعدد الأبعادا
Néanderthal	إنسان بدائي
Noologie	علم النظريات المفتوحة
Noosphère	فلك الأشياء الفكرية
Normalisation	ضبط
Paléocephale	المنطقة القديمة للدماغ
Paradigme	منظومة
Poly-identité	الهوية المتعددة
Rationalité	عقلانية
Rationalisation	تبرير عقلاني
Reliance	الترابط
Rétroaction	ارتداد
Self - deception	الكذب على الذات
Surconscient	الوعي الأعلى
Sur- spécialisation	التخصص الفائق
Symbiosophie	حركة التعايش
Transnational	الاختراق المحلي
Trandisciplinaire	عابر للمعارف


مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

ما يختص به هذا الكتاب هو عرض للمشاكل المركزية أو الأساسية التي تظل منسية أو متجاهلة في التعليم. إنه يقترح سبع معارف «أساسية» يتحتم على كلّ تربية للمستقبل أن تتناولها في كل مجتمع و في كل ثقافة. بدون أي استثناء، وذلك حسب القواعد الخاصة بكل مجتمع و بكل ثقافة.

لقد طلبت اليونسكو من إدْغارْ مورانْ، مدير ورئيس الوكالة الأوروبية للثقافة. و الذي خصص جزءاً مهماً من أبحاثه لمشاكل المعرفة، للتعبير عن أفكاره حول تربية المستقبل في علاقتها بـ «إصلاح الفكر». و التي يعتبرها ضرورية و مستعجلة. «يقدم هذا النص تركيباً يضم كل أفكاري حول التربية»، كما يقول مورانْ.

تنشر دار توبقال للنشر و باتفاق مع منظمة اليونسكو هذه الترجمة العربية حتى تثير حواراً حول الكيفية التي يجب أن تتحرك فيها التربية كقوة للمستقبل، و من أجل إعطاء أبعاد مستقبلية لمختلف المكتسبات العلمية و لمواجهة كل التحديات.

الثمن 42 درهما

UNESCO